المسلمون بين المطرقة والسندان



د. سعد عبد العزيز مصلوح

دار البحوث العلمية

اهـــــــداء 2005

ا.د.عباس عبد الحميد

جامعة الإسكندرية

المسلمون بين المطرقة والسندان

المسلمون بين المطرقة والسندان

الدكتور
سعد عبد العزيز مصلوح
مدرس علم اللغة - كلية دار العلوم
جامعة القاهرة

دار البحوث العلمية

الطبعة الأولى
القاهرة
١٤٠٠ هـ ــ ١٩٨٠ م

دار البحوث العلمية
شارع فهد السالم عمارة الأوقاف رقم ٤ شقة ٢٨
الكويت ص.ب ٢٨٥٧ ــ هاتف ٤١٤٢٢٠



الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسوله ومن والاه ••

وبعد ••

ففى حياة الاسلام والمسلمين على مدى تاريخهم الطويل مأساة درامية الأحداث ، موحدة الفصول • وربما يختلف المسرح ، ويتنوع الممثلون بيد أن النهاية كانت دائما وما تزال فاجعة •

عشنا أحداث هذه المأساة من قبل فى الشام والأندلس ، ونعيشها الآن واقعا فى فلسطين • وألفنا أن نضرب بهذه الأحداث المثل حين يعوزنا البكاء على مجد الاسلام وحضارته الزاهرة • غير أن محنة الاسلام والمسلمين فى قبضة القياصرة وتحت حكم السلطة الحمراء جديرة بأن تظل موضوعا تتأمله العقول ، وجذوة يتلظى بها الوجدان ، ومرارة تنشع بها الحلوق ، حين تطل عيوننا دائما على اخوان لنا يتعرضون لأبشع مخطط يستهدف فسخ شخصيتهم واستئصال عقيدتهم من جذورها ، واعادة صياغتهم على نحو لا يريدونه هم ولكن يراد بهم •• والقضية ــ بعد ــ هى قضية دينية وانسانية فى آن معا • انها جديرة باهتمام كل مدافع عن حقوق الانسان من البشر ايا كان جنسه أو دينه أو

عقيدته كما أنها من باب أولى دين فى عنق كل مسلم يعنيه أمر المسلمين ومستقبل الاسلام ، وفى عنق كل قادر على المشاركة فى دفع الاصر عن اخوانه فى الدين .

وغنى عن البيان أن قضية الاسلام والمسلمين فى الاتحاد السوفيتى ذات أبعاد تاريخية وسياسية واقتصادية وفلسفية متشعبة ، وأن رسالة صغيرة الحجم كهذه لا تزعم لها قدرة على الوفاء بكل جوانب الموضوع . لكن هذا لا يثنينا عن بذل الجهد واستفراغ الوسع للالمام بأطراف القضية وتوضيح أبعادها أداء للأمانة ، وحفزا للهمة ، وابراء للذمة . وقد رأينا من الأوفق أن نعالج فى هذه الرسالة الموجزة المباحث الآتية :

١ ــ الجذور التاريخية للقضية .

٢ ــ المسلمون السوفييت وحق تقرير المصير .

٣ ــ المسلمون السوفييت ومبدأ حرية الضمير .

٤ ــ التربية الالحادية لجماهير المسلمين : أسسها ووسائلها ونتائجها .

٥ ــ نظرة الى المستقبل .

وقد توزعت هذه المباحث فقرات خمس نوردها على الترتيب السابق ، وبالله التوفيق .

أولاً

الجذور التاريخية للقضية

يكاد يجمع المؤرخون السوفييت على أن سيبيريا والقرم وآسيا الوسطى وبلاد ما وراء القوقاز تنفرد من بين سائر البقاع الخاضعة الآن للحكم السوفييتي بأنها كانت أول أرض شهدت بزوغ فجر الحضارة البشرية . هناك بدأ الانسان التعرف الى الطبيعة التى سخرها الله له ، وعرف طريقه الى العمل الجماعى ، واكتشف الزراعة ، وشق قنوات الرى ، وظهرت فى منتصف الألف الأولى قبل الميلاد مدن كبيرة فى مناطق الواحات تحولت من بعد الى دول فى خوارزم وماركاند (سمرقند) وغيرهما . وبذلك قطعت هذه البلاد شوطا كبيرا فى مضمار التطور سبقت به غيرها من بلاد ما يطلق عليه الآن روسيا الأوربية .

وتعرضت شعوب هذه المناطق قبل الاسلام لموجات أثر موجات من جيوش الغزو الآشورى والفارسى والمقدونى والرومانى حتى استطاع بعضها فيما بين القرنين السادس والأول قبل الميلاد أن تقيم دولة كبيرة ضمت اذربيجان وجورجيا وأرمينيا ازدهرت فى ظلها الحضارة وتقدمت الحرف وصناعة المنسوجات الحريرية والقطنية وغير ذلك من الصناعات .

ومع بدايات القرن الأول للميلاد خضعت شعوب ما وراء القوقاز لامبراطورية الروم كما قامت الدولة الكوشانية التى وحدت تحت حكمها شعوب آسيا الوسطى فيما بين القرنين الثانى والرابع للميلاد حتى جاء القرن السابع للميلاد فبدأت طلائع الجيوش الاسلامية الزاحفة تصل الى هذه المناطق ، واستطاعت خلال القرنين السابع والثامن أن تمكن للاسلام فيها ، وان تجعل منها جزءا لا يتجزأ من الخلافة الاسلامية وتحول معظم أهلها الى الاسلام ، وفشلت كل الحركات الفوضوية التى حاولت فصلها عن الخلافة ، وكان أشدها عراما وشراسة فتنة بابك الخرمى التى اندلعت فى القرن التاسع واستمرت لمدة قاربت العشرين عاما .

ومع نشأة الدول المستقلة فى أنحاء الخلافة العباسية والتى لا تخضع لخليفة بنى العباس الا خضوعا اسميا ـ ظهرت الدولة السامانية فى بخارى وخوارزم ، ثم انتقل الحكم من دولة بنى سامان الى الدولة السلجوقية منذ منتصف القرن الحادى عشر .

غير أن القرنين الحادى عشر والثانى عشر قد شهدا مرحلة تحول فى تاريخ هذه المناطق . لقد أخذت آسيا الوسطى تنقسم الى مجموعة من الممالك المستقلة كان من بينها : مملكة خوارزم شاه فى « أورجينتش » ودولة شروان شاه فى « اذربيجان » . ولم يكن الاستقلال هو الطابع الوحيد الذى

ساد العلاقة بين هذه الممالك بل لم يخل الأمر من تنافس وتناحر فى كثير من الأحيان •

هكذا كان الحال على الجبهة الاسلامية • فكيف كان الحال فى الجبهة الأخرى : جبهة الشعوب السلافية المجاورة أو جبهة الروس القدماء ؟

لقد شهد القرن العاشر بداية تكون دولة للروس القدماء ، اذ تجمعت قبائلهم واتخذت من « كييف » عاصمة لدولة السلاف الشرقيين • وأخذت شوكة هذه الدولة تقوى شيئا فشيئا حتى أصبحت فى القرن الحادى عشر من أقوى دول أوربا ، ونالت اعتراف امبراطور بيزنطة بها • وأعلن أميرها فلاديمير سفياتو سلافيتش عام ٩٨٨ اعتناقه للمسيحية وقويت روابطها ببيزنطة •

وزادت دولة السلاف الشرقيين قوة الى قوتها فى عهد ياروسلاف الحكيم بيد أن الدولة انقسمت فى عهد أبنائه الى امارات مستقلة تمزقها الفتنة والحروب الدموية بين الاخوة • وهكذا تساوت الكفتان بين الجبهتين : ضعف هنا وضعف هناك • وان لم يسلم الأمر من مناوشات واستضعاف لجبهة المسلمين على يد قيصر « جيورجيا » داود الرابع (١٠٨٩ — ١١٢٥) الذى استطاع أن يستثمر ضعف السلاجقة ويستولى على تيبليس • وامتد سلطان القيصره تاهارا الى معظم بلاد

ما وراء القوقاز ٠ ومن المؤسف أن يتحالف الشروانيون مع قياصرة « جورجيا » ضد اخوانهم من السلاجقة المسلمين ٠

وظلت الجبهتان على حالهما من الضعف فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر حتى هبت رياح المغول تجتاح الجميع ، وفى بداية القرن الثالث عشر ١٢٠٦ توحدت قبائل المغول تحت لواء جنكيز خان ، وانطلقت قبائل المغول كالريح العاتية تجتاح جنوبى سيبيريا وآسيا الوسطى ، وفيما بين عامى ١٢١٨ و ١٢٢٠ سقطت بخارى وسمرقند ثم بلاد ما وراء القوقاز واذربيجان « جورجيا » وأرمينية ٠ وانطلق « باتو » حفيد جنكيز خان الى أراضى الروسيا ، واشعل الحرائق فى موسكو (التى كان قد اسسها الامير « يورى دولجا روكى » فى عام ١١٤٧) كما أحرق روستوف وياروسلاف واكتسح مدينة كييف وأحرقها فى عام ١٢٤٠ ٠

وخضعت بلاد المسلمين والأمراء الروس على حد سواء لسلطان حفدة جنكيزخان الذين اتخذوا من سراى فى شبه جزيرة القرم عاصمة لدولتهم ، وأخذوا الجزية من الجميع ٠ وكان الأمراء الروس يلهثون وراء خانات المغول طمعا فى رضاهم وسعيا وراء لقب « الأمير العظيم » وأصبح خان المغول مسئولا عن حل المشكلات بين هؤلاء الأمراء وعن حفظ السلام بينهم وتسوية الخلافات ٠

ودامت سيطرة المغـول على أراضى الروس حقبـة طويلة امتدت الى عام ١٤٨٠ أى ما يزيد على مائتين وخمسين عاما ، انتصر الروس على المغول خلالها فى بعض المعارك وكان أهمها معركة كوليكوفسك التى دارت رحاها فى سبتمبر عام ١٣٨٠ • غير أن توختومش خان عاد اليهم بعد عامين اثنين لينتقم منهـم شر انتقام وليشعل الحرائق فى موسكو ويبقيها تحت سـيطرة المغول قرنا آخر •

أما عن ديانة المغول فقد كان أكثرهم وثنيا أو شـامانيا • واعتنق « باتو » قاهر الروس النصرانية لفترة ما ، وتردد خاناتهم ما بين الشامانية والمسيحية زمنا حتى شرح الله صدرهم للاسلام، واعتنقه ملكهم « أوزبيك خان » (١٣١٤ ــ ١٣٤١) ودخلت جحافل المغول فى دين الله أفواجا • وهنا يبرز الاسلام من جديد على مسرح الأحداث ، ويدخل طرفا فى الصراع مع المسـيحية الارثوذكسية التى انتشرت بين الروس ، وخاصة حين أصبحت « موسكو » وريثا للامبراطورية البيزنطية ، وأصـبح القيصر حامى الأرثوذكسية ــ بعد فتح بنى عثمان للقسطنطينية فى عام ١٤٥٣ •

ذكرنا أن الروس ظلوا خاضعين لسلطان المغول الذين دخلوا فى الاسلام الى الربع الأخير من القرن الخامس عشر • وهنـا برزت عوامل جـديدة أخذت فى تغيير ميزان القـوى لصـالح الروس • ويمكننا بغير كبير جهد أن نتوقع هذه العوامل :

لقد كانت على الجانب الاسلامى تفتيتا للدولة وتفككا لأوصالها : فانقسمت الدولة الاسلامية الى ممالك مستقلة أربع هى مملكة القرم واستراخان وقازان وسيبريا ولم تخل العلاقة بين هذه الممالك من تنافس وتناحر . أما على الجانب المسيحى فكانت مزيدا من الوحدة والقوة تحت سلطان موسكو . فقد صفت الامارات الاقطاعية حسابها مع بعضها واستطاع أمير موسكو فاسيلى فاسيلنفتش الضرير [1] (١٤٢٥ — ١٤٦٢) أن ينهى الموقف لصالحه ، وانتقل العرش من بعده الى ابنه ايفان الثالث (١٤٦٢ — ١٥٠٥) وهكذا توطدت دعائم القيصرية .. وحين آنس ايفان الثالث من نفسة قوة امتنع عن دفع الجزية الى أحمد خان . وقامت الحرب بينهما فى (١٤٨٠) ورجحت كفة الميزان لصالح موسكو منذ ذلك الوقت الى يوم الناس هذا .. ثم ان أمر الخلاف بين الممالك الاسلامية أخذ يستفحل ويستشرى حتى حالف بعضهم قياصرة الروسيا ضد اخوانه المسلمين ، ولله فى خلقه شئون .

وهكذا أصبحت المحصلة مزيدا من الضعف والتخاذل فى معسكر المسلمين ومزيدا من القوة والوحدة والمنعة فى معسكر النصارى . وبدأت الأمور تتخذ مسارها المحتوم الى النهاية الفاجعة .

---

(١) لقب هذا القيصر بالضرير لان خصومه أرسلوا اليه من يختطفه ويسمل له عينيه .

أعد نصارى الروسيا عدتهم ، واعتلى العرش من بعد ايفان الثالث آخوه ايفان الرابع الذى لقبــه المؤرخون بايفان الرهيب (١٥٤٧ ــ ١٥٨٤) [1] وكان دمــويا متعصبا فبيت للمســلمين أمرا ، وأخذ يجرد الحملة تلو الحملة على قازان • ولكن حملاته كانت تتحطم على صخرة المقاومة العنيدة التى أظهرها المسلمون حتى طلع صــبح يوم حزين هو الثانى من أكتــوبر عام ١٥٥٢ سقطت فيه قازان الشهيرة بعد أن حاصرها النصارى حصــارا طويلا ، وتمكنوا من احداث ثغرة كبيرة فى قلعتها الحصينة تدفقت منها جيوش الروس الى قلب المدينة المسلمة ودارت المعــارك فيها ــ بشهادة المؤرخين السوفييت ــ من شارع الى شارع ومن بيت الى بيت فتساقط القتلى وسالت الدماء • وحــل الخراب واستبيحت الحرمات • وكانت هذه بداية النهاية •

لم تمض أعوام أربعة على سقوط قازان حتى سقطت مملكة استراخان وتشــكيريا • وفى عام ١٥٨١ و ١٥٨٢ أنفــذ ايفان الرهيب جيوشه الى كوتشوم خان ملك غربى سيبريا • ودارت معركة طاحنة بين جيوش المسلمين بقيادة كوتشوم خان وجيوش قيصر الروسيا بقيادة يرماك قائد جيوش القيصر الذى دفع حياته ثمنا للهجوم • فانسحبت جيوشه ولكن الى رجعة • ففى مطلع القرن السابع عشر دارت رحى المعارك بينهما من جديد ، وهزم

---

(١) يلاحظ ان هناك فجوة بين نهاية حكم ايفان الثالث فى ١٥٠٥ وبداية حكم ايفان الرهيب فى ١٥٤٧ . وتفسير ذلك ان ايفان الرهيب اعتلى العرش وهو ابن ثلاث سنين ، ومكث تحت وصاية والدته الى تولى الحكم فى العام المذكور .

كوتشوم خان وقتل • وبذلك اقتطع القيصر الدموى شريحة أخرى غالية من جسد الوطن الاسلامى هى مملكة غربى سيبيريا • ولم ينفع خان المغول فى شرقى سيبريا اعلانه الولاء لقيصر الروسيا ، اذ مالبث أن جاء دوره ، وطويت صفحة الحكم الاسلامى فى هذه المنطقة وساد العسف والاضطهاد والنهب والتخريب ليضربوا على المسلمين الذلة والمسكنة •

بيد أن المسلمين ما ضعفوا وما استكانوا بل أعلنوا الجهاد غير مرة ضد عسف المستعمرين الروس وظلمهم • فقامت ثورة استراخان المسلحة ضد حكم القيصر بطرس الأول (١٦٨٢ — ١٧٢٥) ، وأعلن المسلمون استقلالهم عن الامبراطورية الروسية، ورفعوا أعلام الاسلام على استراخان تسعة أشهر فيما بين عامى ١٧٠٥ و ١٧٠٦ • ولكن الثورة قد قمعت باقسى وأبشع ماعرف التاريخ من وسائل القمع والتدمير •

واندلعت ثورة البشكير فى الوقت نفسه تقريبا واستمرت ستة أعوام كاملة ما بين عامى ١٧٠٥ و ١٧١١ ولم تكن بأحسن حظا من سابقتها •

وشارك المسلمون فى قازان وبشكيريا فى كل الثورات التى هبت ضد مظالم القياصرة حتى تلك التى قادها زعماء من الروس أنفسهم وفى جميعها كان منطق القوة الغاشمة هو المنتصر •

وقد شهد القرن الثامن عشر وصول العلاقات الروسية

التركية الى ذروة تأزمها ، وكان لذلك تأثيره المباشره على وضع المسلمين فى آسيا الوسطى والقوقاز • وخاضت روسيا خلال هذا القرن وفى عهد قيصرتها كاترين الثانية (١٧٦٢ ــ ١٧٦٦) حربين ضروسين ضد تركيا بهدف تدعيم مركزها على البحر الأسود ، وحق مرور أساطيلها الحربية من مضيقى البوسفور والدردنيل • وكان من حصاد الحرب الأولى التى استمرت مابين عامى ١٧٦٨ و ١٧٧٤ أن اعترفت تركيا باستقلال مملكة القرم عنها • وكان هذا تمهيدا طبيعيا للبيان الذى أصدرته القيصرة كاترين الثانية بعد ذلك بضم القرم الى أفلاك امبراطورية الروسيا •

أما الحرب الثانية (١٧٨٧ ــ ١٧٩١) فقد حاولت بها تركيا أن تستعيد سيادة الخلافة العثمانية على القرم ولكنها أسفرت عن ترسيخ للاستعمار الروسى المسيحى لشبه جزيرة القرم ، وعن سقوط قلعة اسماعيل أقوى قلاع العسكرية العثمانية على الدانوب وكان حصاد المعركة عشرة آلاف من شهداء المسلمين •

ولم تكن ذراع القيصرية حتى نهاية القرن الثامن عشر قد نالت بخارى وكازاخستان ، بل ظلت هاتان المملكتان محتفظتين باستقلالهما تربطهما بامبراطورية الروسيا علاقات اقتصادية وسياسية وثيقة • وغفل المسلمون فيهما عن الخطر المحدق

يسألون الله العافية بيد أن الوقت المناسب لابتلاعهما لم يـــكن قد حان بعد •

كانت عيون القيصر الكســندر الأول (١٨٠١ ــ ١٨٢٥) تتجه الى جيورجيا التى كانت ميدان حرب بين الروسيا وايران فاغتصبها وضــمها الى املاكه فى ١٨٠١ ، كما ضــم شــمالى أذربيجان وداغستان والجزء الأكبر من أرمينيا فى عشرينات هذا القرن التاسع عشر • وفى هذا الوقت ظهر على مسرح الســياسة الدولية ما عرف بالمسألة الشرقية • واحتدم الصراع بين روســيا وتركيا وايران • وحاول المسلمون استثمار المتغيرات الجـديدة فقام أهالى داغستان بثورة مسلحة قمعتها جيوش القيصر •

وما كادت هذه الجيوش تنصرف راضية عما فعلته بالمسلمين فى داغستان حتى اندلعت حركة المريدين « أعظم ثورة اسلامية فى تاريخ القيصرية ، وكان على رأس الثائرين أمام من أعظم أئمة المسلمين فى تاريخهم هو الامام شامل • أعلن هذا الامام العظيم فى عام ١٨٣٤ « الجهاد » ضد الكفار المستعمرين وسانده رجال الدين فى شن الغزوات ضدهم ، وأقام دولة الامامة ، واستنزف برجاله قــوى قيصرين من قيــاصرة الروس هما نقــولا الأول (١٨٢٥ ــ ١٨٥٥) والكسندر الثانى (١٨٥٥ ــ ١٨٨١) • وأجاد استخدام الظروف الطبيعية من وعورة الجبال وكثافــة الغابات ، واستماتت جيوش المسلمين دفاعا عن كل قــرية مــن قــرى القــوقاز ، وتكرر حصــار الجيــوش القيصرية للامام

« شامل » ولكنه فى كل مرة كان يكسر الحصار ويستأنف الجهاد • واستمر جهاده قرابة ثلاثين عاما حتى جفت منابع السلاح والمؤن وضاقت الأرض بما رحبت • واستطاعت جيوش القيصر أن تقضى على ثورة المسلمين عام ١٨٦٤ • وكانت ثمرة هذه الحرب أن انطلقت جيوش القيصر لتضم الى أملاكها جميع مناطق آسيا الوسطى تقريبا • وهكذا دخلت شعوب أوزبكستان وتاجيكستان وكازاخستان وتركمانيا تحت حكم القيصرية الأسود •.وكدأب المسلمين فى أكثر الأحوال كان الصراع والتناحر بين ممالك المسلمين الباقية فى طشقند وبخارى وخولاند وسمرقند على أشده • وامتدت بذلك رقابهم لفأس القيصر فسقطت طشقند فى عام ١٨٦٥ وبخارى فى عام ١٨٦٨ وخولاند فى ١٨٧٣ ثم بقية بلاد التركمان فى أوائل الثمانينات وحاول المسلمون أن يستعيدوا بعض ما فات وأن يستأنفوا الجهاد ولكن الظروف لم تكن مواتية • وهكذا خيم ظلام القيصرية وظلمها على مساحات غنية شاسعة وبقاع غالية من أرض المسلمين •

وفى الربع الأخير من القرن التاسع عشر أخذت عروش القيصرية تهتز من أنات المضطهدين والمظلومين وباضت الفتنة الشيوعية وأفرخت ، وانتشرت جراثيمها فى هذا الجو الخانق الموبوء ، وبلغ التمرد ذروته فى أوائل القرن العشرين ، وأعلن عن نفسه سافرا فى ثورة ١٩٠٥ • وتداعى البنيان الاستعمارى البغيض • وتسلل الشيوعيون يقودون حركة الجماهير الغاضبة

حتى وثبوا الى السلطة فى أكتوبر ١٩١٧ وورث القياصرة الجدد أسلافهم • أما المسلمون فكانوا ــ لسوء الحظ ــ كمن هرب من الدب فوقع فى الجب •

ليس هذا محض تاريخ وما أردنا له أن يكون لكنها محاولة بذلناها لجمع الخيوط ورسم الملامح لحركة من أبشع الحركات الاستعمارية التى شهدها تاريخ الانسان • ولقد صاحبت الحركة الصليبية الروسية المد الصليبى الاستعمارى الأوربى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وكانت جزءا منه لا يتجزأ • وقاتلت تحت نفس اللواء وحملت نفس الشعار وكان اسلامنا فى الحالتين هو الضحية وما يزال • « ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » •

ثانيــاً

المسـلمون فى الاتحاد السـوفيتى وحـق تقـريـر المصـــير

نوقن جميعا أن الاسلام دين الله ، وأنه كلمته التى لا مبدل لها لهداية الناس الى ما فيه صلاح المعاش والمعاد .

وحين نتناول بالحديث قضية المسلمين السوفييت والواقع الذى يعيشونه الآن تحت حكم السلطة السوفيتية لا يستطيع أى منـا أن ينسى أنه مسلم وأنهم مسلمون ، وأن رباطا غلابا من الحب والمودة والرحمة تصل بينه وبينهم مهما تناءت الديار . هـذا كله حق لا مراء فيه . وحق أيضا أن شعورا من الكراهية والحقد قد يختلج به فؤاد أى منا ضد أولئك الذين جعلوا من الحادهم دينا ، ومن البشر آلهة يعبدون ، وخاضوا تحت لوائهم أشرس حرب ضد الله ورسوله والمؤمنين . .

ان مكابدة هذه الأحاسيس هى مما يشعر به أى مسلم حين يكون الحديث عن اضطهاد المسلمين فى أى مكان (وأنى لمثلى أن يهرب من هذا الشعور وانما مثلى ومثله كقول القائل :

ليت شـعرى أين منه مهربى   أين يمضى هارب مـن دمـه

بيد أننا نرى أنه ما يزال ثمة مجال لكي تقال فى هذا الموضوع كلمة حق وسنحاول أن نقوم برحلة البحث عن الحقيقة بعيدا ـ ما أمكننا ذلك ـ عن قذائف الهجوم والدفاع، ومتابعات التفسير والتأويل ، وسيكون موضوع تأملنا هو وثائق الحكومة السوفيتية وقرارات الحزب ، والأقوال الثابتة النسبة لزعمائه ، ومجموعة التشريعات والقوانين السوفيتية المنظمة لحقوق المواطنين وواجباتهم . والتى هى ـ بالمنطق الماركسى نفسه ـ تعبير صادق عن علاقات القوى فى المجتمع . ان محاولة الوصول الى كلمة موضوعية بتأمل هذه الوثائق يقلل فى رأينا والى حد كبير من خطر الأحكام الذاتية ، وتسلط انفعالات الحب والكراهية .

وسنتناول فى هذا البحث ما يتعلق بحق تقرير المصير للشعوب الاسلامية التى كانت خاضعة للامبراطورية الروسية .

اننا نعتقد أن حركات المقاومة الاسلامية وعلى رأسها حركة المريدين بقيادة الامام شامل قد أسهمت بدور كبير فى زلزلة دعائم القيصرية . ومن ثم كان طبيعيا أن يتحرك المسلمون بعد اندلاع ثورة فبراير وفى ظل الحكومة المؤقتة ليضمنوا لأنفسهم أبسط الحقوق الانسانية وهو حق تقرير المصير . لقد أحس المسلمون أن حصولهم على هذا الحق ليس منة ولا منحة من أحد ، فمهما نسب الشيوعيون لأنفسهم من شرف النضال ضد القيصرية فلن يجدوا فى تاريخهم حركة ثورية مسلحة كحركة

المريدين تستنزف قوى القياصرة لمدة ثلاثين عاما . لقد أسهم الشيوعيون فى شركة النضال بأقل القليل ثم ربحوا فى النهاية كل شيء .

لذلك تميزت الفترة الواقعة ما بين ثورة فبراير وقيام ثورة أكتوبر بعدد من المؤتمرات الاسلامية التى كانت تنظر فى حل لمستقبل المسلمين فى المرحلة الجديدة . ففى ابريل ١٩١٧ عقد فى أوربنورج مؤتمر المسلمين الكازاخ والكيركز ، كما عقد فى أول مايو ١٩١٧ بموسكو مؤتمر لمسلمى عموم الروسيا ، وفى ٢ نوفمبر ١٩١٧ ـ أى بعد قيام الثورة البلشفية ـ عقد المجلس المالى فى مدينة أوفا . وكانت الفكرة التى سادت هذه المؤتمرات تتلخص فى أن أفضل أشكال الحكومات لرعاية مصالح الشعوب الاسلامية هو تكوين جمهورية ديموقراطية تقوم على أساس قومى اقليمى وعلى مبدأ الاتحاد الفيدرالى مع توفير نوع من الاستقلال الثقافى والقومى للقوميات التى ليس لها موطن محدد .

ولما لم تكن السلطة قد أستقرت للشيوعيين بعد فقد أصدر مجلس مفوضى الشعب برياسة لينين نداءه الشهير الى المسلمين فى ديسمبر ١٩١٧ الذى يقول فيه :

أيها المسلمون فى روسيا . أيها التتر على شواطيء الفولجا وفى القرم أيها الكيرقيز والسارانيون فى سيبريا والتركستان والتتر والأتراك فى القوقاز . أيها التشيشيون . يا أهل الجبال فىأنحاء القوقاز . أنتم يا من انتهكت حرمات مساجدكم

وقبوركم ، واعتدى على عقائدكم ومقدساتكم • ستكون حرية عقائدكم وعاداتكم وحرية نظمكم القومية ومنظماتكم الثقافية مكفولة لكم منذ اليوم لا يطغى عليها طاغ ولا يعتدى عليها معتد • هبوا اذن فابنوا حياتكم القومية كيف شئتم فأنتم أحرار لا يحول بينكم حائل وبين ما تريدون • ان ذلك حق لكم • واعلموا أن حقوقكم شأنها شأن حقوق سائر أفراد الشعب الروسى تحميها الثورة بكل ما أوتيت من عزم وقوة وبكل ما يتوافر لها من وسائل • الجنود الشجعان ومجالس العمال ومندوبى الفلاحين •

وكان منطقيا أن يستثمر الشيوعيون كل تراث الحقد والكراهية والمظالم القيصرية بمثل هذا النداء • وقد جاء هذا النداء متفقا تمام الاتفاق مع المفهوم الذى اعتمده الحزب الشيوعى لحق تقرير المصير للشعوب غير الروسية قبل وصوله الى السلطة فى أكتوبر •

ففى المؤتمر السابع للحزب الشيوعى البلشفى لعموم الروسيا والذى عقد فى ابريل ١٩١٧ ــ تقريبا فى نفس الوقت الذى عقد فيه واحد من أهم المؤتمرات الاسلامية ــ اتخذ الحزب قرارا بهذا الشأن يتضمن مبادىء أربعة هى :

١ ــ حق جميع القوميات غير الروسية فى الانفصال عن روسيا •

٢ ــ الاستقلال الاقليمى للقوميات الباقيــة داخل حــدود روسيا •

٣ ــ ضمان حقوق الأقليات قانونا •

٤ ــ وحدة الحزب •

والآن ماذا تقــول حقائق التــاريخ ، والى أى مدى وافق الفعل المقال ؟

لقد صدر نداء لينين الشهير فى ديسمبر ١٩١٧ • وفى يناير ١٩١٨ انطلقت جحافل الحرس الأحمر دون سابق انذار لتخضع بالحديد والنــار رقاب المســلمين فخاضت فى دماء الــكازاخ والكلبرقيز • ومن فضول القول أن نسرد الفظائع الدموية التى تقشعر لها الأبدان ويشهد بها الــكتاب الســوفييت فى معرض الفخر بشجاعة الحرس الأحمر •

ويحدثنا ف • د • بونتش ــ برويبفتش أن لينين صرح له فى أواخر عام١٩١٧ ــ والتاريخ هنا ذو دلالة هامة ــ بقوله ان أمامنا فى مجال الدين حربا طويلة جادة هائلة لاهوادة فيهــا ، حربا تقتضينا الحذر كل الحذر [١] •

واذن لئن صح النقل ــ وهو عنــدنا صحيح بلا ريب ــ اذ لامسوغ منه للافتراء على لينين فعلينا أن نفهم أن كل شىء كان

---

(١) نيكيشوف : « تطبيق التراث الالحادى اللينينى فى الحياة » (بالروسية) موسكو ١٩٦٩ ، ص ١٣ •

معدا لتكون الضربة الموجهة الى الاسلام والمسلمين فى توقيتها الصحيح •

أما المقاومة الاسلامية فقد تجمعت فى خوقند • وتزعم كبار المسلمين ورجال الدين جيوش الباسماتشى التى أخذت توالى القيام بعملياتها العسكرية ضد الحرس الأحمر وقواعده فى طشقند وضد من تعاون معهم من الخونة المحليين [١] •

غير أن عامل المباغتة والفروق الهائلة بين المقاومة الاسلامية والحرس الأحمر فى التجهيز والاعداد العسكرى والتدريب جعلت من المستحيل على المقاومة أن تفعل شيئا • ولم يمض وقت طويل حتى انهارت حكومة خوقند الاسلامية تحت ضربات القوة الروسية المسلحة فى يناير ١٩١٨ • وفى مارس من نفس العام كانت الأمور قد استقرت للشيوعيين على جميع الأراضى التى كانت خاضعة لحكم القيصر •

وكان لينين حريصا فى هذا كله أشد الحرص على ألا يستثير الشيوعيون الحمية الاسلامية لدى جيوش المقاومة ، اذ هويعلم أن ذلك سيجعل مهمة الحرس الأحمر شاقة ، فنرى لينين يقول فى برقية له الى أحد القواد على جبهة القوقاز ، « مرة أخرى

---

(١) فىكتاب فيكتور كرافتشستكو : [آثرت الحرية] وصف لتجربته مع الباسماتشى أثناء أدائه الخدمة العسكرية فى الجيش الاحمر • وفى الوصف شىء من الانصاف للحقيقة [أنظر الترجمة العربية ص ٦٨ ــ ٧٥] •

أرجوك أن تتصرف بغاية الاحتياط . وعليك أن تبدى للمسلمين أقصى مظاهر حسن النية » [1] .

ويقول فى تقرير له عن « برنامج الحـزب » تقـدم به الى المؤتمر الثامن للحزب الشيوعى الروسى البلشفى : « أما بالنسبة لشـعوب الكيرقيز والأوزبيك والتاجيك والتركمـان ، تلك الشعوب التى ما تزال الى الآن واقعة تحت سيطرة رجال الدين فلابد من أن نوليهم عناية خاصة . ولابد مـن الانتظـار حتى يؤدى التطور بهذه الأمم الى تميز العنـاصر البروليتـارية من العناصر البورجوازية وهو أمر لا ريب فى أنه سيكون [2] » .

وكثيرا ما تساق أمثال هذه النصوص فى كتابات السوفييت فى معرض الاشادة بسياسة لينين والتأكيد على انسـانيتها وعلى بره بالمسلمين . غير أن حجتهم هذه ــ فى رأينا ــ داحضة .. فلدينا أكثر من شاهد على أن تراث الكفاح البطولى للمسلمين ضد القيصرية كان فى ذهنه حاضرا . كما أن الفـزع من كلمـة « اسلام » لم يكن مستبعدا . لقد عهـد لينين بريـاسـة مجلس مفوضى الشعب لشـئون القـوميات الى سـتالين وما أدراك ما ستالين . ولينين ولا شـك ــ من أخبر النـاس بحـوارييه وأنصاره . وبدأ ستالين علاج قضية المسلمين فأنشأ مفوضـية

---

(1) ن . عشيروف : « تطور الاسلام فى الاتحـاد السـوفيتى » ، ص ١٣ (بالروسية) .

(2) السابق . ص ١٤

خاصة بشئون المسلمين • وعهد برياستها الى مولانور وحيدوف الذى ألف بدوره ــ وتحت رعاية ستالين ــ حزبا سماه « الحزب الروسى للشيوعيين المسلمين » • ثم حل ستالين هــذا الحــزب وعهــد بمســئولياته الى ما ســماه « المكتب المركزى للهيئات الاسلامية التابع للحزب الشــيوعى الروسى » • وقــد لاحظ جيوفرى هوبلر بحــق أنه فى مارس ١٩١٩ اســتبدلت بعبــارة « الهيئات الاسلامية » عبارة « هيئات شعوب الشرق » ، وأنه منذ تم هذا الاستبدال اختفت تماما مفوضية شئون المسلمين كمــا استبعد تماما مفهوم « الاسلام » من بنية السياسة السوفيتية الى غير رجعة [1] •

واذا سألت زعماء الحزب عن الوعــود التى قطعــوها على أنفسهم بتبنى حق تقرير المصير ، وتأييــد حق القــوميات غير الروسية فى الانفصال عن روسيا ، وعن مغزى نداء لينين الشهير أجابوك ــ بعد أن خلا لهم الميدان ــ اجابة ماكرة خبيثة تأخذ بالشــمال ما تعطى باليمين • أن تروتســكى يجيبك عن هــذا السؤال فيقول : « اننا لا نعترف بمبدأ تقرير المصير فحسب بل نؤيده كل التأييد عندما يكون هذا المبدأ موجهــا الى الدول الاقطاعية أو الرأسمالية أو الامبريالية • أما حين تصير حــكاية تقرير المصير سلاحا فى يد البورجــوازية موجهــا الى الثــورة

---

(1) Wheeler, " Racial Problems in Soviet Moslem Asia 2nd ed. P. 13

البرولتارية فلا يمكننا أن نعامل حكاية تقرير المصير معاملة تختلف عن غيرها من « مبادىء » الديموقراطية التى تسىء الرأسمالية استخدامها » [1] .

ان الشيوعيين اسفروا عن الوجه الحقيقى الكئيب بعد أن تمكنت أيديهم من نواص المسلمين ولم يعودوا بحاجة الى استرضائهم أو الى تذكيرهم بمآسى القيصرية . وبذلك وضح للمسلمين أن القياصرة ربما كانوا أخف وطأة عليهم من دعاة التقدمية والعدالة والسلام .

والطريف أنه بعد أن كان عهد القياصرة يوصف فى كتابات الشيوعيين السوفييت بأنه « أعظم الشرور شرا » كما يقول بوكروفسكى تغيرت نظرتهم وتقويمهم لهذا العهد فأصبح خضوع الشعوب المغلوبة للقيصرية اختيارا لأهون الأضرار بل أنه أصبح فى كتابات متأخريهم خطوة تقدمية حققت لهذه الشعوب أجل المنافع ويورد هوبلر فى كتابه السابق ذكره ملاحظة ذكية حين يقارن ما ورد بهذا الشأن فى دائرة المعارف السوفيتية الكبرى فى طبعتيها الأولى عام ١٩٣٨ والثانية عام ١٩٥٣ ، فقد تضمنت الطبعة الأولى ادانة لمظالم القيصرية أما الطبعة الثانية فليس فيها ما يشير الى أنه كانت لروسيا مستعمرات ولذا لم يكن ثمة ما يدعو لمناقشة شرور الاستعمار . ثم

---

(١) السابق ص ١٦ .

أليس عجيبا أن يتخذ هــذا الموقف من النظــام الاســتعمارى القيصرى قوم يتصايحون ليل نهــار بأن محــاربة الاســتعمار وشروره هى غاية نضالهم ومبرر وجودهم ؟

لاغرو ، فقد التقى قياصرة الأمس وقياصرة اليوم على الغاية واختلفوا فى الوسيلة . ولم يكن المسلمون فى غفلة عن هـــذا المعنى . بل لقد تحدى مسلمو التركستان سـلطة الســوفييت وعقدوا المؤتمر الثانى لهم فى ابريل ١٩٢٢ فى مدينة سمرقند ، وأصدروا قرارا لم ينشر نصه فى الخارج الا عام ١٩٣٢ . وجاء فى القرار أن الروس الذين اتخذوا لأنفسهم اسم الشيوعيين فى تركســتان بدءوا بمجرد اعــلان سلطتهم فى اضــطهاد مسلمى التركستان على نحو أشد قسوة مما كان عليه الأمر أيام القيصر نقولا . وان فرق الجيش السوفيتى الأحمــر أشعلت النــار فى المدن والقرى ، وسرقوا ونهبــوا على نحو ليس له مثيل ، وهم مستمرون على هذا .. انه ما لم تغير الحكومة السوفيتية مــن سياستها ، وتضمن السلام أى أنه ما لم توافق على أن يــكون للتركستان حكومة منهم تتمتع بثقة الشعب ، وتتلاءم مع ظروف معاشهم ، وما لم ترد حكومة السوفيت عليهم حقوقهم السياسية والثقافية فاننا نحن مسلمى التركستان سواء بالسلاح أو بدونه سنعلن الحرب على الحكومة الســوفيتية الى آخر قطرة مــن دمائنا » .

ويمكن لمن شاء أن يرجع الى العريضة التى أرسلها النازحون

المسلمون من تركستان الى عصبة الأمم المتحدة شارحين فيهـا ما تعرضـوا له من عسف وقهـر وتدمير واحـراق [1] ، والى ما نشرته مجلة ملى تركستان فى عدديها الصادرين فى ديسـمبر ١٩٥١ ومارس ١٩٥٢ [2] ففيه صورة نمطية لكل ما أوقعه الحكم « التقدمى المناهض للامبريالية » بالأقليات المسلمة .

ولم يكن القهر باستخدام العنف وقوة السلاح فحسب بل مارست السلطات القهر الثقافى ، فعملت على استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية كما فعل أتاتورك ، وذلك بالنسـبة للغات الاسلامية التى كانت تكتب بحروف عربيـة . ثم خطت خطوة أخرى فى هذا الطريق فاستبدلت بالنظام اللاتينى النظام الهجائى الروسى حتى تقطع ما بين هذه الشعوب والعالم الاسلامى من صلة . ولهذا الأمر قصة طويلة لا محل لتتبعها هنا [3] .

لكن الدعاية السوفيتية تطالعنا بنصوص تنشر هنا لبرقيات تأييد منسوبة الى زعماء المسلمين والهيئات الاسلامية يعبرون فيها عن ترحيبهم بسلطة السـوفييت وتأييدهم لها وأورد نعمان عشيروف فى كتابه :

---

(١) نشرت المظلمة فى كتاب « الاسلام فى وجه الزحف الأحمر » لفضيلة الشيخ محمد الغزالى انظر الطبعة السادسة .

(٢) انظر : د . احمد شلبى النظم الاقتصادية فى العالم عبر العصور ط ١ ، ١٩٧٦ ، ص ٢٠١ – ٢٠٢ .

(٣) ا . ت . بازيف و م . ا . عيسايف : « اللغة والامة » (بالروسية) ، موسكو ١٩٧٣ ، ص ١٠٣ – ١٢١ .

نماذج من هذه البرقيات كبرقية التأييد المنسوبة الى مسلمى التتر بمناسبة اعلان جمهوريتهم السوفيتية وفيها يعتبرون السلطة السوفيتية « المدافع الوحيد عن القوميات الصغيرة » .
ومنها كذلك برقية بتاريخ ٣ ديسمبر ١٩٢١ من مؤتمر المعلمين فى أجاربستان تحمل نفس المعانى ، وبرقية بتاريخ ٢٥ أكتوبر ١٩٢٦ من الهيئة الاسلامية فى أوفا تعد السلطات بالعمل على « تدعيم مكاسب الثورة » (١) .

وقد صرح المفتى ضياء الدين بابا خانوف لأحد الصحفيين المصريين (٢) بأن الحكم السوفيتى لم يفرضه أحد على المسلمين بل أقامه الشعب بنفسه فى آسيا الوسطى ، وأن الثورة — على النقيض من مزاعم أعدائها — كانت « أنصع الثورات بياضا فى تاريخ الانسان » ، وأن حركة المقاومة الاسلامية لم تكن الا « عصابات من النهابين والسفاكين » .

ولنا ملاحظات على ما سبق . فأما عن برقيات التأييد الموجهة الى سلطات الحزب والحكومة من الهيئات والزعامات الاسلامية

---

(١) ن . عشيروف ، المرجع السابق ذكره ، ص ٢٧ — ٢٨ .

(٢) نشرت تصريحات المفتى وغيرها فى نشرة دعائية صدرت بالقاهرة تحمل عنوان « ٧ أيام مع المسلمين فى الاتحاد السوفيتى » بقلم عبد الله نوار . وانظر للاقتباسات المذكورة ص ١٨ و ١٩ من النشرة المذكورة . وتجد مثل ذلك أيضا فى نشرة بعنوان « المسلمون فى الاتحاد السوفيتى » بقلم يوسف صديق منصور .
ومما يؤسف له أن يروج هذه الاباطيل دون أن يستوثق من صحتها الشيخ الفحام شيخ الجامع الأزهر السابق .

فربما يكون لنا بعض العذر اذا شككنا فى أمرها فقد علمتنا التجارب فى العالم الثالث الكثير عن الكيفيات التى تصدر بها مثل هذه البرقيات وطبيعة القوم الذين يتولون كبر ارسالها • وعذرنا اذا شككنا فى وصف فضيلة المفتى للثورة الشيوعية بأنها أنصع الثورات بياضا ـ هو عذر أوجب فقد وصفها فضيلته بالبياض الناصع أما زعماؤها ومنفذوها وأعرف الناس بها فقد وصفوها وصبغوا رايتها بالحمرة القانية فأى الطرفين أولى بالتصديق ؟

والحق أن أمثال رجال الدين هؤلاء يقومون فى خدمة الحكم الشيوعى بوظيفتين متناقضتين ولكنهما متكاملتان فى آن معا • انهم بالنسبة للخارج واجهة دعاية تستر ما وراءها وتزين القبح للناظرين • وأما بالنسبة للداخل فمثار سخرية واحتقار بل انهم من أنجح أدوات الدعاية المضادة للدين ، ينفرون بهم المسلمين من اسلامهم • وسنورد نصا طريفا نقيم به الدليل على ما نذهب اليه • وقد أخذنا هذا النص من خطبة ألقاها امام وخطيب مسجد لينينجراد الشيخ ستاروف بمناسبة عيد ثورة أكتوبر فى السابع من نوفمبر ١٩٦٩، قال فضيلة الشيخ : «لقد بحث المضطهدون فى العالم عن مخرج من ضيقهم غير أنه باستثناء تعاليم القرآن الكريم لم يجد المضطهدون من يهديهم الى سبل تحقيق هذه الأهداف • ولم يستطع أحد أن يبين لهم كيف يمكنهم انتزاع السلطة من أيدى البورجوازيين والاقطاعيين ، وكيف يقضون

على الملكية الخاصة للأرض ووسائل الانتاج الأخرى لكن الله يمهل ولا يهمل . لقد هيأ الله للبشرية ماركس وانجلز فكانا أول من أجابا فى تاريخ البشرية عن هذه المسائل . وهكذا ولأول مرة فى التاريخ وضع الأساس النظرى لهذه القضية : قضية بناء الاشتراكية وتحقيق الشيوعية . وبقى أمر تطبيق هذه النظرية فوهبنا الله جلت قدرته قائدا لا يقل عن ماركس وانجلز فى المكانة . وهكذا انتقلت القضية الى يد قائدنا العظيم فلاديمير ايلتش لينين » .

ان نعمان عشيروف يورد نص هذه الخطبة ويعلق عليه تعليقا يقطر سخرية واستخفافا فيقول : وهكذا تبين لنا أن الله قد اختار بنفسه أكبر الملحدين ليحققوا خطته الهادفة الى تغيير البناء القائم على الاضطهاد والاستغلال الى بناء اجتماعى جديد أن هذا الكلام دال بنفسه لا يحتاج ـ كما يقال ـ الى نقص أو زيادة »[1] . انتهى كلام الكاتب . وعندنا من أمثال هذه النصوص عشرات ولكن بعضها يدل على سائرها .

ومن عجب أن تمتد عدوى الدعاية الى المواثيق الدستورية والقانونية حتى ليكاد الأمر ينقلب الى هزل صرف .

فالمادة الأولى من دستور ١٩٣٦ تنص على أن اتحاد

---

(١) عشيروف : المرجع السابق ، ص ٣٩ ـ ٤٠

الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية اتحـاد « اختيـارى » •أما المضحك المبكى فهو ما تقرره المادة السابعة عشرة من الدستور نفسه من أن لكل جمهورية من جمهوريات الاتحاد مطلق الحرية فى الانفصال عنه •

أكبر ظننا أن الجيش الأحمر سيحمى حق أى جمهـورية فى الانفصال عن الاتحاد السوفيتى بنفس الكفاءة التى حمى بهـا حق المجر وتشيكوسلوفاكيـا فى أن يكون لارادتهـا شيء من الاستقلال •

ان حاصل التنظير والتطبيق لمبدأ حق الشعوب الاسلامية فى تقرير مصيرها هو أن الدستور والدولة يحميان حق كل جمهورية فى ألا تنفصل عن حكم السلطة الحمراء •

ثالثاً

المسلمون فى الاتحاد السوفيتى ومبدأ حرية الضمير

سخر الماركسيون وعلى رأسهم لينين من المفهوم البورجوازى لمبدأ حرية الضمير • وقدموا مفهوما بديلا خاصا هو عندهم أدنى للحق وأولى بالاتباع •

ان البورجوازيين ـ فى رأى الماركسيين ـ لا يفهمون من مبدأ حرية الضمير الا أنه حرية التدين ، على حين أن المفهوم الأمثل لحرية الضمير عند الماركسيين أن يكون المرء حرا فى أن يتدين أو لا يتدين •

ان حرية الالحاد مرفوضة فى المجتمع البورجوازى بينما هى عند الماركسيين الجناح الآخر لحرية الضمير • من هنا أعلنت حكومة الثورة فى دستور جمهورية روسيا الاتحادية الفيدرالية الصادر فى عام ١٩١٨ مبدأ حرية الضمير ، وقدمته فى شكل مادة دستورية تقول : « ان حرية الدعاية الدينية واللادينية مكفولة للجميع » •

وقد يرى المتدينون فى تلك الصيغة نوعا من الشطط وتوفير الحماية القانونية للملحدين بيد أننا كنا تتمنى من أعماق القلب

أن لو بقى هذا المفهوم حكما أمينا فى قضية حرية المعتقد دون أن يعرض له تغيير أو سوء تطبيق ، فلا خوف على الحق أن ظهرت أدلته الى جانب أدلة الباطل ، اذ العقل والتجربة كفيلان بأن يذهب الزبد جفاء وألا يمكث فى الأرض الا ما ينفع الناس .

ويبدو أن القادة الملحدين قد رأوا أن التسوية بين الملحدين والمؤمنين فى حق الدعاية لما يعتقدون لن تكون فى صالح الملحدين . ولما كانت استراتيجية الحزب المعلنة فى مجال الصراع العقائدى هى محو « رواسب الماضى » من نفوس الجماهير ، وتحرير وعيها من خرافات الدين ، وتربية الشعب فى روح الشيوعية ، واعادة بناء الشخصية السوفيتية وتشكيلها بحيث تتبنى النظرة العلمية بدلا من النظرة الغيبية أو باختصار — الحيلولة بين الشعب وبين تعاطى ذلك الأفيون الذين يسمونه الدين — نقول : لما كان ذلك كذلك أصبح موقف الحياد بين الدين والالحاد أمرا غير وارد ، وأصبح مبدأ التسوية بين المتدينين وغير المتدينين فى حرية الاعتقاد وفى حق الدعاية لما يعتقدون وهو جوهر المفهوم الماركسى لمبدأ حرية الضمير — مصدر خطر لا مفر من مواجهته وازالته [1] .

ولقد جهد كثيرون ممن يحملون أمانة القلم فى اثبات عداوة الماركسية للدين واستحالة التعايش بينهما . لكن قضية التناقض

---

(1) هذا اذا أحسنا الظن بهم والا فقد يكون التدرج فى التشريع مقصودا حتى لا يستثير مقاومة المؤمنين . وهذا الاحتمال عندنا أقرب الى اليقين .

الأساسى بين الماركسية والدين أو ان شئت فقل بين الالحاد والدين فى رأينا هى من الوضوح بحيث لا حاجة بنا الى معالجتها . وجزى الله المتنبى عن الحكمة والحكماء خيرا حين قال :

وليس يصح فى الأذهان شيء اذا احتاج النهار الى دليل

ان القول بأن « الدين أفيون الشعوب » ليس قولا مغرضا نسبه أعداء الماركسية الى ماركس ، بل هو قول صحيح النسبة اليه أورده فى مقدمة نقده لنظرية هيجل فى الحق [1] . ويقول مؤلفو « كتاب الالحاد : تاريخه ونظريته » الصادر فى موسكو عام ١٩٧٤ : « ان قول ماركس بأن الدين أفيون الشعوب يحدد جوهر موقف الأحزاب البروليتارية بالنسبة لقضية الدين » [2]. وهذا القول الواضح ينفى بذاته أى دعوى لتغير موقف الماركسية من الدين .

وقد أكد ماركس بما لا يدع مجالا لتخمين أن « أى دين ما هو الا انعكاس زائف فى أدمغة الناس للقوى الخارجية المتحكمة فى حياتهم اليومية ، وأنه انعكاس تتخذ فيه القوى الأرضية شكل قوى غير أرضية [3] .

---

(١) ماركس ، انجلز ، لينين : « عن الدين » (بالروسية) ، موسكو ١٩٧٥، ص ١١ .

(٢) م . ب . نوفيكوف وآخرون : « الالحاد : تاريخه ونظريته » (بالروسية) ص ٣٨٣ .

(٣) ماركس ، انجلز لينين : المرجع السابق ذكره ، ص ٥ .

ويلخص كراسيكوف ــ من وجهة نظره ــ خطر الدين على المجتمع السوفيتي تلخيصا بينا فيقول : « اننا مع تحطيمنا لاستغلال الانسان للانسان فى الاتحاد السوفيتي ، وهو الجذر الأصيل للدين فى المجتمع الطبقى ، نجد أن بقايا التدين فى وعى الكادحين تقوم بدور هائل فى عرقلة تطور مجتمعنا الشيوعى . انها ــ من ناحية تعوق المتدين عن استيعاب العلم الاشتراكى والتكنولوجيا المتقدمة ، ومن ناحية أخرى تجعل المتدين عاجزا عن مواجهة أى نوع من الدعاية الدينية التى تهدف الى اجتذاب المتدين الى منظماتها ، وبذلك تقطع ما بينه وبين الحياة الاجتماعية والثقافية السوفيتية [1] » .

وتأتى كلمات لينين التى سبق أن أوردناها فى هذه الرسالة قاطعة فى أن الحرب التى بدأ يشنها على الدين هى فى رأيه « حرب طويلة هائلة جادة لا هوادة فيها » [2] . فليس من الحكمة اذن أن نكلف الأشياء ضد طباعها وأن ننتظر من الحكم الشيوعى ألا يضع العراقيل فى طريق الدعوة الى الدين فى الوقت الذى يقف فيه بكل قوته وتأثيره خلف دعاة الالحاد .

---

(١) ب . ا . كراسيكوف : كتابات مختارة فى الالحاد ــ (بالروسية) ، موسكو ١٩٧٠ ، ص ٢٤٤ .

وجدير بالتنويه أن كراسيكوف هذا هو واحد من كبار أنصار لينين ومن أهم من شاركوا فى صياغة المرسوم المشهور عن فصل الكنيسة عن الدولة والمدرسة عن الكنيسة وسنعرض لهذا المرسوم فيما بعد .

(٢) انظر ص ١٠ من هذا البحث .

على أن القوم بعد أن أعلنوا كفالة حرية المؤمنين فى الدعوة الى ما يعتقدون أسفروا عن حقيقة النوايا ، وأخذ لينين يفرق تفريقا طريفا بين علاقة الدين بالدولة وعلاقة الحزب بالدين فقال فى مقال شهير له بعنوان « الاشتراكية والدين » ما نصه :

« ينبغى أن يعتبر الدين مسألة شخصية » . هذه الكلمات تعبير مقبول عن علاقة الاشتراكية بالدين . غير أنه لابد من تحديد معنى هذه الكلمات تحديدا دقيقا حتى لا تستدعى أى نوع من سوء الفهم . اننا نطالب بأن يكون الدين مسألة شخصية بالنسبة للدولة . أما بالنسبة لحزبنا فاننا لا نستطيع أن نعتبر الدين مسألة شخصية .. ان الدين بالنسبة لحزب البروليتارية الاشتراكية ليس مسألة شخصية بحال — أن حزبنا هو رابطة تجمع التقدميين الواعيين المناضلين لتحرير الطبقة العاملة . ومثل هذه الرابطة لا تستطيع — وما ينبغى لها — أن تقف موقفا محايدا من الجهالات والظلام وانعدام الوعى الذى تنطوى عليه الأديان [1] .

---

(١) اعيد نشر المقال فى كتاب [مختارات فى علم الاجتماع] (بالروسية) ، موسكو ١٩٧٣ ، ص ١٦٢ .

اما مفتى طشقند فيقول للصحفى المصرى : [ان الحكومة السوفيتية والحزب الشيوعى وهو الحزب الحاكم للدولة لا يتدخلان فى شئون ديننا . وقد أعطتنا الدولة كل الحق فى ان نشرح للسكان عقائدنا وننشر دين الله مثلما تعطى الملحدين الحق فى عدم الايمان والجهر بالالحاد] فانظر وتأمل « كتاب ٧ أيام مع المسلمين فى الاتحاد السوفيتى لعبد الله توار ص ٢٢ — ٢٣ » .

بهذه الكلمات يتم توزيع الأدوار بين الدولة والحزب فى عملية القضاء على الدين ان الدولة فى رأيه « يمكن أن تكون محايدة أما الحزب فمنحاز • ولكن سؤالا هاما يرد الآن ويتطلب اجابة واضحة : هل الدولة تعتبر الدين بالفعل مسألة شخصية لا شأن لأحد بها تاركة المجال للصراع العقائدى السلمى بين الدعوة الى الدين والدعاية المضادة للدين لتحسم الأمر لصالح « العلم » و « التقدم » و « المستقبل » أى لصالح القضاء على الدين كما يعتقدون ؟

وقبل الدخول فى المعالجة التفصيلية لهذه القضية نذكر القارىء بما أخذنا به أنفسنا من محاولة البحث عن الحقيقة فى الوثائق والتشريعات والأقوال الصحيحة النسبة الى قائليها حتى نحصر الأحكام الذاتية فى أضيق نطاق يمكن أن يطبقه باحث • وها نحن أولاء نتابع موقف الدولة من الأديان من خلال النصوص الدستورية والقانونية المنظمة لممارسة الشعائر الدينية راجين أن يتضح من هذا العرض مدى حيادية الدولة فى هذا المجال ومنبهين فى الوقت نفسه الى أن مفهوم « الكنيسة » حين يرد فى النصوص انما هو من قبيل اطلاق الخاص على العام اذ يراد به كافة الأديان ودور العبادة مع اختلاف أنواعها والاسلام ومساجده من بينها •

وأول ما يلفت النظر فى هذا المجال ما أصاب النص الدستورى الخاص بحرية المعتقد من تغيير • فبعد أن كان

دستور جمهورية روسيا الاتحادية الفيدرالية ينص على أن حرية الدعاية الدينية واللادينية مكفولة للجميع ـ اعادت المادة الرابعة والعشرون بعد المائة من دستور ستالين صياغة النص فاصبح كما يلى : « تأمينا لحرية الضمير بالنسبة للمواطنين تنفصل الكنيسة عن الدولة والمدرسة عن الكنيسة ، ويعترف لجميع المواطنين بحرية ممارسة الشعائر الدينية وحرية الدعاية الالحادية » •

ولا ينبغى أن يمر هذا التعديل دون تأمل • ذلك أن كفالة حرية الدعاية الدينية فى النص الأول يتضمن بالضرورة كفالة حرية ممارسة الشعائر الدينية ويزيد عليها • أما النص الثانى فلم يذكر الا حرية ممارسة الشعائر الدينية واستثنى حرية الدعاية الدينية • وهكذا أصبح حق المتدينين محصورا فى امكان زيارة الكنيسة أو المسجد دون القيام بأى نشاط فى مجال الدعوة• وبذلك انتزع الدستور الثانى حقا كفله الدستور الأول للمؤمنين •

ولنأخذ الآن فى تتبع سلسلة المراسم والقوانين الصادرة بهذا الشأن منذ اليوم الثانى للثورة :

ففى ٨ نوفمبر ١٩١٧ (٢٦ أكتوبر بالتقويم القديم) صدر ديكرتينو أول مرسوم بعنوان « عن الأرض » يقضى بمصادرة جميع الأراضى المملوكة للكنيسة والأديرة ودور العبادة الأخرى•

وفى ٣١ ديسمبر ١٩١٧ صدر مرسوم خاص بالأحوال الشخصية يقضى باحلال التوثيق المدنى للزواج محل التوثيق الدينى ويقضى باعدام أى أثر قانونى للعلاقة بين الزوجين أو بين الآباء والأبناء اذا اكتفى الزوجان بالتوثيق الدينى لعقد الزواج .

وفى يناير ١٩١٨ صدر قرار بوقف صرف أى مرتبات لرجال الدين أو العاملين بدور العبادة .

وقد كانت كل هذه المراسيم والقرارات اجراءات عاجلة بادرت السلطات باتخاذها لحين صدور مرسوم ينظم كل ما يتعلق بقضية الدين تنظيما شاملا ودقيقا . وقد صدر المرسوم المنتظر فى ٢٠ يناير ١٩١٨ واتخذوا له عنوانا « عن حرية الضمير والمنظمات الكنسية والدينية » . وسنحاول أن نعرض بشىء من التفصيل لفحوى هذا المرسوم [١] .

تقضى المادة الأولى من هذا المرسوم بفصل الكنيسة عن الدولة والمدرسة عن الكنيسة .

وتقضى المواد الثانية والثالثة والسادسة بحظر تصنيف المواطنين بحسب الدين ، والغاء جميع الامتيازات التى تتمتع بها الهيئات الدينية ومصادرة جميع ممتلكاتها . كما تقضى بعدم

---

(١) اعتمدنا فى عرض مواد هذا المرسوم على مقال لكراسيكوف – وهو من اهم من أشرفوا على صياغة وعنوان المقال :
« وذكر تيتو عن الكنيسة والمدرسة » بالروسية .
نشر بالمجموعة السابق ذكرها ص ١٩٢ – ٢٠١ .

النص على دين المواطن أو الطائفة الدينية التى ينتمى اليها فى أى وثيقة رسمية •

وتنص المادة الرابعة على الحظر التام للقيام بأى مراسيم أو طقوس دينية فى أى احتفال أو نشاط حكومى أو اجتماعى كما تنص على الغاء اليمين الدينية فى المناسبات الرسمية والاجتماعية• وتكفل المادة الخامسة حرية ممارسة الشعائر الدينية باستثناء الشعائر المخالفة للنظام الاجتماعى أو التى يترتب عليها ضرر أو اعتداء على حقوق المواطنين •

وتقضى المادة الثامنة بالفصل التام بين الدولة والكنيسة فى كافة الاجراءات المتعلقة بالأحوال المدنية من ميلاد وزواج وطلاق وموت ومواريث وغير ذلك بحيث يعتبر التسجيل المدنى هو الأساس الوحيد لترتب النتائج القانونية على التصرفات •

ويحظر المرسوم فى مادتيه العاشرة والحادية عشرة على الجهات المحلية أو المركزية تخصيص أى اعتمادات مالية لصالح المؤسسات الدينية سواء أكانت هذا الاعتمادات فى شكل اعانات أو حصص مفروضة على المواطنين تكتسب صفة الالزام • ويدخل فى مفهوم الالزام أى ضغط أدبى أو أخلاقى •

هذه هى أهم النصوص التى تضمنها المرسوم الشهير عن فصل الكنيسة عن الدولة والمدرسة عن الكنيسة • وقد أصدرت

الدولة تطبيقا لهذا المرسوم قوانين تنظم بموجبها ممارسة الشعائر الدينية وتحدد حقوق المتدينين وواجباتهم وسنورد أهم ما تضمنته القوانين فيما يلى :

١ ـ يعطى القانون للمتدينين الحق فى تكوين منظمات أو جمعيات دينية ويكون لأعضاء أى منها الحق فى ممارسة الشعائر والطقوس الدينية ، وانتخاب أو تعيين مقيمى الشعائر وجمع التبرعات الاختيارية من أعضائها دون استخدام أى نوع من أنواع الاكراه أو الضغط بما فى ذلك الضغط الأدبى أو الأخلاقى • وتستخدم التبرعات فى صيانة دور العبادة وترميمها ودفع المرتبات والمصروفات اللازمة •

٢ ـ يتقدم المؤسسون لأى منظمة أو جمعية دينية بطلب الى اللجنة التنفيذية التابعة لمجلس السوفيت فى المنطقة أو المدينة ويوقع على هذا الطلب عشرون من المؤسسين على الأقل • ويتم تسجيل الجمعية وأسماء أعضائها • كما يتم توقيع اتفاقية بين المؤسسين والسلطات • ويختص بالفصل فى كافة الأمور المتعلقة بنشاط الجمعيات الدينية لجنة شئون الأديان التابعة لمجلس الوزراء السوفيتى بواسطة فروعها المختلفة • وبدون هذا التسجيل يصبح نشاط الجمعية محظورا وغير قانونى •

٣ ــ يضمن القانون المساواة بين كافة المجموعات الدينية بقطع النظر عن انتمائها الدينى أو عدد الأعضاء • ولا يتمتع أى منها بأى امتياز على المجموعات الأخرى •

٤ ــ لا تمانع الدولة فى تعميد الأطفال أو اجراء المراسيم الدينية للزواج • ولكن الزواج لا ينعقد ولا يترتب عليه الآثار القانونية الا بتسجيله فى سجل الأحوال المدنية •

٥ ــ يحظر القانون ممارسة أى طقوس أو مراسيم دينية أو ادخال ما يلزم من أدوات لأداء الشعائر الدينية فى جميع المؤسسات الحكومية والعامة ، أى فى أى مكان باستثناء الأماكن المخصصة قانونا لأداء العبادة •

٦ ــ يحظر القانون على الجمعيات والمنظمات الدينية أن تخصص صندوقا للمعونات أو أن تقوم بأى نشاط خيرى أو عمل اجتماعات ولقاءات وندوات خاصة بالأطفال أو الشباب أو المرأة ، كما يحظر عقد أى أنواع من الحلقات لتدريس الدين للمواطنين •

٧ ــ يحظر القانون على الجمعيات والمنظمات الدينية القيام بأى رحلات أو عمل معسكرات للأطفال أو افتتاح مكتبات أو قاعات مطالعة أو انشاء مصحات أو دور للاستشفاء •

٨ ـ يحظر القانون زيارة الأماكن الدينية المقدسة حفاظا على صحة المواطنين •

٩ ـ للدولة أن تحظر نشاط الجمعية الدينية وتغلق دور العبادة الخاصة بها وتصادر ممتلكاتها اذا مارست نشاطا معاديا لأهداف الدولة ، كأن تدعو الى رفض تنفيذ الواجبات الوطنية أو الامتناع عن أداء الخدمة العسكرية أو مقاطعة الانتخابات الحكومية أو العامة ، أو اثارة العصبية الدينية أو القومية • كما يكون للدولة حق حل الجمعية وحظر نشاطها اذا تسبب عن هذا النشاط انتقاص من حقوق المواطنين •

١٠ـ للدولة أن تحظر نشاط الجمعية وتغلق دار العبادة الخاصة بها اذا عبر سكان الحى أو المنطقة عن رغبتهم فى ذلك وتقدموا بطلب موقع عليه من غالبيتهم • ولأعضاء الجمعية فى هذه الحالة أن يتظلموا الى السلطات المختصة اذا كان لديهم من الأسباب ما يوجب التظلم •

١١ـ يعتبر اغلاق دور العبادة من اختصاص الهيئات التنفيذية للأحياء أو المناطق التابعة لمجلس السوفيت • أما فى الجمهوريات الاتحادية فيتولاه مجلس الوزراء • وتقوم الأجهزة برفع تقرير مسبب للهيئات العليا تطلب فيه الغاء الاتفاق مع الجمعية الدينية المعنية ويكون اتخاذ القرار من حق الجهات العليا •

١٢ـ يحظر على رجال الدين استغلال الاجتماعات الدينية لالقاء خطب تعبر عن وجهات نظر سياسية أو اجتماعية موجهة ضد مصالح المجتمع السوفيتى •

١٣ـ التعليم الدينى للأطفال فى المدارس أو دور العبادة ممنوع منعا باتا •

١٤ـ يحظر دخول دور العبادة للمواطنين الذين تقل أعمارهم عن ثمانية عشر عاما •

١٥ـ محظور على الجمعيات والمنظمات الدينية نشر الشائعات المغرضة أو توزيع المنشورات أو توجيه نداءات الى الرأى العام •

١٦ـ لأى عضو من أعضاء الجمعيات الدينية أن يسحب عضويته فى أى وقت يشاء دون أدنى التزام منه بأى حق قبل هذه الجمعية •

ويعد هذا هو المحتوى الرسمى للقوانين المنظمة لممارسة الشعائر الدينية الذى ينظم العلاقة بين المتدينين وسلطات الدولة• وبتأمل النصوص الدستورية والقانونية السابقة يتضح لنا ما يلى :

أولا : أن الدستور السوفيتى يقوم على فصل الدين عن الدولة • وقد يحتج هنا بأن علمانية الدولة مبدأ معترف به فى

معظم بلدان العالم الرأسمالى والعالم الثالث ، وأن الاتحاد السوفيتى ليس بدعا من الدول فى هذا الشأن .

غير أننا نرى أن ثمة فرقا كبيرا بين فصل الدين عن الدولة على أساس مبدأ علمانية الدولة وبين الفصل على أساس مبدأ الحادية الدولة ، فالدول الغربية العلمانية تعتبر المسيحية فيها رغم علمانيتها مصدرا رئيسيا للتشريع كما أن المسيحية فيها لا تحارب ولا ينعزل تأثيرها على الحياة بقرارات من السلطة .. هذا كله حق لا مراء فيه ، وحق أيضا أن علمانية دول الغرب كانت وماتزال قفازا يخفى وراءه مخالب التعصب الصليبى الأسود ضد الاسلام والمسلمين . غير أن الخطر على الدين فى البلدان الشيوعية حيث يقوم الفصل بين الدين والدولة على أساس من الحادية الدولة هو أبعد خطرا واعمق غورا . ومن هنا نرى أن تمييع الفروق الرئيسية فى وضع الدين بالنسبة للدولة بين البلدان الاشتراكية وغيرها من البلدان لا يمكن أن يكون مقبولا هذا مع افتراضنا لحسن النية عند القائلين به [1] .

ثانيا : ان النصوص التشريعية تحصر الغاية من ممارسة الشعائر الدينية فى الاشباع الروحى لمشاعر المتدينين ولا شىء

---

(1) انظر : النظم الاقتصادية فى العالم عبر العصور للدكتور احمد شلبى ١٨٧ .

غير ذلك • ومن ثم يعزل الدين عزلا تاما عن كافة مواقع التأثير الفكرى والثقافى والاجتماعى والسياسى على حياة معتنقيه •

ثالثا : تولى القوانين المنظمة لممارسة الشعائر الدينية عناية خاصة لتجفيف منابع التدين بتركيزها على تحديد موقف الأطفال والشباب من الدين • فهى تمنع تدريس الدين فى المدارس بجميع أنواعها ومستوياتها وعلى اختلاف قومياتها ، كما تصدر قوانين تجرم عقد الندوات الخاصة بالأطفال أو الشباب فى دور العبادة وممارسة أى نشاط اجتماعى أو رياضى عادى للأطفال أو الشباب اذا تم فى اطار دينى ، ودخول دور العبادة قبل بلوغ سن الرشد •

وفى الوقت نفسه يقوم الحزب ووراءه كل امكانات الدولة بمهمة التربية الالحادية للجماهير ويبدأ فى ذلك بمنظمة الطلائع للأطفال وينتهى بالحزب الشيوعى للراشدين مرورا بمنظمة الكومسمول للشباب أى أن عملية التربية الالحادية تشمل جميع مراحل العمر • وسنعرض لهذا الأمر بالتفصيل فى الفقرة التالية ان شاء الله •

رابعا : لم تهمل القوانين أثر المرأة فى تربية الأجيال الجديدة• ولاحظ جميع خبراء الدعاية الالحادية أن سيطرة الدين على المرأة مازالت أقوى من سيطرته على الرجل ، وأن نشر الالحاد بين النساء يواجه صعوبات لا يواجهها بالنسبة للقطاعات الأخرى

من المواطنين • وتلخص مؤلفتنا مقال « خصائص نشر الالحاد بين النساء المؤمنات [1] » • هذه الفكرة تلخيصا جيدا فى العبارة الآتية : « يشكل النساء فى بلادنا أغلبية لها خطرها بين المتدينين• ولذلك كانت مشكلة القضاء على الدين فى بلادنا هى مشكلة القضاء على تدين النساء فى المقام الأول » •

لذلك حظر القانون القيام بأى نشاط دينى بين النساء على حين يربى الحزب والدولة كوادر خاصة لنشر الالحاد بين النساء على اختلاف دياناتهم وقومياتهم وبخاصة بين النساء المسلمات لأسباب سنذكرها فى حينها ان شاء الله •

خامسا : أن الحالات التى اعتبرها القانون مسوغات لحظر ممارسة الشعائر الدينية وحل الجمعيات والمنظمات الدينية هى من الكثرة والتنوع والمرونة بحيث يمكن استخدامها فى أى وقت وضد أى جماعة أو فرد متى شاءت الدولة ذلك • كما أن من بين هذه الحالات ما أطلق عليه اثارة العصبية الدينية والخلافات القومية وهما تهمتان من السهل الصاقهما بأى كلام أو وعظ دينى وفى الوقت نفسه يعدان من أخطر ما يعاقب عليه القانون من تهم •

---

(١) المؤلفتان هما كوجارينونا وكراسيتسكايا . وقد نشر مقالهما هذا فى مجموعة بعنوان : نشر الالحاد بين أفراد المتدينين (بالروسية) موسكو ، ١٩٦٧ ، ص ١٢٧ •

سادسا : أن القانون لم يكتف بالحالات السابق ذكرها مسوغا لحظر ممارسة الشعائر الدينية بل جوز غلق دور العبادة بناء على طلب موقع عليه من الأغلبية المطلقة لسكان الحى • ومعلوم بالبداهة أن هذا الأمر من أيسر اليسير على الدولة ومنظمات الحزب ادعاؤه وتنظيمه بشتى وسائل القهر والاكراه المادي والنفسى • والأمر لا يعدو ــ بعد ــ أن يكون تقنينا للبطش بالدين والمتدينين •

سابعا : أن حرمان المنظمات الدينية من حق ابداء رأيها فى شئون الحياة والمجتمع والسياسة ، وحرمانها من مخاطبة الرأى العام بتوجيه أى بيانات أو نداءات الا ما كان فى صالح أهداف الدولة والحزب يجعل منها مجرد شارة ورسم ، ويحولها الى ألعوبة مضحكة ، فى يد السلطان ويجرها فى مزالق النفاق ، ويفقدها شخصيتها المستقلة ، ويؤدى فى النهاية الى عدم اقناع الناس بها وانصرافهم عنها •

ثامنا : ان القانون يحظر زيارة الأماكن الدينية المقدسة حفاظا على صحة المواطنين • فى الوقت الذى يحول فيه نصب الجندى المجهول ومقبرة لينين وسور الكريملين الى أماكن مقدسة يوجب على الهيئات والمنظمات زيارتها فى الأعياد والمواسم • ومن المشاهد المعتادة فى الميدان الأحمر الطوابير الطويلة من المواطنين وهى تقف أمام مقبرة لينين • ولقد رأينا رأى العين

مئات من الأطفال دون العاشرة من العمر يساقون ليقفوا تحت جليد الشتاء وفى برد موسكو القارس وهم يحملون الورود والشارات والاعلام ، وينتظرون ساعات وساعات طمعا فى نظرة خاطفة يلقونها على جسد الزعيم المسجى فى صندوقه الزجاجى تحت الأضواء . واذن هل يصلح الحفاظ على صحة المواطنين سببا لمنع المتدينين من زيارة الأماكن التى يقدسونها [١] ؟ .

وأخيرا نقول ان هذه الملاحظات جميعا ترد على القوانين السابق ذكرها حتى فى حالة التطبيق الأمين لنصوصها . فما بالنا لو أخذت الدولة والحزب فى الاحتيال على هذه النصوص والدوران حولها لحاجة فى النفس . وناهيك باحتيال الدولة على قانون هو من وضعها وتقوم على تنفيذه أجهزتها البوليسية والقضائية .

ونحن لا نذكر ذلك من قبيل الفرض الجدلى وان كان هذا واردا ان هناك شواهد كثيرة على حدوث هذا الاحتيال . وها هو ذا كراسيكوف يكشف لنا فى مقال ــ نعده من وجهة نظرنا ــ خطيرا فى دلالته ــ وعنوان هذا المقال : « حول بعض الأخطاء فى تطبيق القوانين السوفيتية الخاصة بممارسة الشعائر الدينية [٢] » . يقول كراسيكوف انه لا داعى لأن يعامل أى

---

(١) مناقشة الحكم الشرعى فى حل زيارة الاضرحة والأماكن المقدسة تقع خارج نطاق هذا البحث .

(٢) نشر المقال فى المجموعة السابق ذكرها .

متدين على أنه عدو للسلطة السوفيتية • هذا غير صحيح وغير جائز أيضا ولا يخدم الا الأعداء الحقيقيين للسلطة السوفيتية • ويعترض على ما جرى فى بعض الأحيان من اغلاق لدور العبادة بوسائل ادارية بيروقراطية ارهابية • ويرى أن ذلك انما يحدث فى المناطق التى يكون فيها العمل الحزبى سيئا وفاقدا للفاعلية • ويرجو ألا يتم جمع التوقيعات من المواطنين لاغلاق دور العبادة بوسائل عنيفة قد تؤدى الى التصادم مع المتدينين ويجب أن يتم ذلك ــ فى رأيه بالاقناع ويرى أن اقناع المتدينين يمكن أن يكون أيسر عندما يرون أن اغلاق المسجد أو الكنيسة وتحويله الى دار حضانة للأطفال أو مركز ثقافى أو مسرح أو سينما هو بالنسبة لهم أفضل من بقائه على حاله دارا للعبادة •

ويسخر كراسيكوف من جامعى التوقيعات الذين يعتبرون اغلاق دار العبادة غاية المراد وخاتمة المطاف • ويرى أن بقاء المسجد أو الكنيسة ــ مغلقا دون تحويله الى مؤسسة نافعة يثير مشاعر المؤمنين ويؤدى الى الصدام والكراهية بينهم وبين مسئول الحزب •

وهكذا يكشف لنا هذا المقال وأمثاله عن أن تطبيق قانون اغلاق دور العبادة لا يخلو من احتيال وقهر • وكثيرا ما كنا نرى اخواننا من المسلمين والمسلمات يتجمعون عند مسجد موسكو وفى محطة المترو القريبة من المسجد ليتبادلوا التهنئة بعيد الفطر

أو عيد الأضحى فتقوم الشرطة بتفريق جموعهم دون أن يعيروا أذنا لرجاء المسلمين وتوسلاتهم . وكثيرا ما ترتفع صيحات المسلمين قائلين : « انهما يومان فى السنة . ألا تسمحون لنا بيومين فقط فى كل عام ؟ » . أما ذريعة تفريق المتجمعين من المسلمين فهى عند الشرطة « تعطيل حركة المرور » .

لقد قال لينين ان الدولة تنظر الى الدين على أنه مسألة شخصية أما الحزب فهو حرب على الدين وعلى خرافاته . ولقد عرضنا لموقف الدولة من الدين من خلال النصوص الدستورية والقانونية . وحاولنا ــ ما أمكننا ذلك ــ أن نحصر الأحكام الذاتية فى أضيق نطاق ممكن . فهل يستطيع زاعم ــ بعد ما أثبتناه ــ أن يزعم بأن دور الدولة فى محاربة الدين قليل الفاعلية محدود التأثير ؟ .

وهل يستطيع صاحب ضمير أن يستريح الى تسمية هذا الذى يجرى على الساحة السوفيتية بأنه « تحرير للضمير » ؟ .

رابعاً

والفتنة أشد من القتل

أوردنا فى المبحث الثالث كلمات لينين التى حدد بها تحديدا قاطعا دور الحزب والدولة فى عملية القضاء على الدين . ومن المعلوم بالضرورة أن الدولة فى الاتحاد السوفيتى انما هى جهاز يقوم على تنفيذ سياسة الحزب وتوجيهاته وتحويلها الى واقع معاش على الأرض السوفيتية . ومن ثم كان برنامج الحزب الشيوعى أعظم فى باب الحجية من دستور الدولة أو ان شئت فقل انه دستور الدستور .

وها هو ذا برنامج الحزب الذى أقره المؤتمر الثانى والعشرون للحزب الشيوعى يذكر تحت عنوان « القضاء على رواسب الرأسمالية فى وعى الجماهير وسلوكهم » ما نصه :

« ان الحزب ينظر الى النضال ضد مظاهر الايديولوجية والأخلاقيات البورجوازية ، وضد بقايا النزعة النفسية الى حب التملك وضد الخرافات والأباطيل على أنه جانب من جوانب العمل فى مجال التربية الشيوعية للجماهير .

وفى النضال ضد رواسب الماضى ومظاهر الفردية والأنانية

يضطلع تأثير الرأى العام والهيئات الاجتماعية وتطوير النقـد والنقد الذاتى بدور كبير .

ان الحزب يستخدم وسائل التأثير الفكرى من أجل تربية البشر بروح المعرفة المـادية العلمية ، ومن أجل القضـاء على خرافات الدين دون السماح باهانة مشاعر المتدينين . وانه لمن الضرورى القيام ـ وبشكل منظم ـ بنشر الدعاية الالحـادية العلمية والصبر على توضيح افلاس العقائد الدينية ، تلك العقائد التى نشأت فى الماضى على أساس من خضـوع البشر لقـوى الطبيعة العشوائية والظلم الاجتماعى بسبب جهلهم بالأسـباب الحقيقية المحركة لظواهر الطبيعة والمجتمع . ويعتمد الحزب فى نضاله هذا على منجزات العلم الحديث التى تجلو بطريقة أشمل صـورة الكون ، وتزيد من سيطرة الانسـان على الطبيعة ، ولا تترك مجـالا لخزعبلات الهوس الدينى عن قوى ما فوق الطبيعة [1] » .

وتضمن ميثاق الحزب الشيوعى وميثاق الكومسمول النص على واجب العضو تجاه الدين . وقـد حددته الفقرة (جـ) من المادة الثانية فى ميثاق الكومسمول بأن « يشن حربا لا هوادة فيها ضد جميع مظاهر الأيديولوجية البورجوازية وضد خرافات

---

(١) برنامج الحزب الشيوعى السوفيتى (بالروسية) ، موسكو ١٩٧٢ ، ص ١٢١ ـ ١٢٢ .

الدين ، وجميع المظاهر المعادية للمجتمع ورواسب الماضى [1] » .
كذلك حدد ميثاق الحزب الشيوعى فى الفقرة (د) من المادة الثانية واجب العضو فى هذا الصدد بقريب من هذه الصيغة [2]

والحق أن هذا الموقف الذى تعبر عنه مواثيق الحزب ومنظماته فى أحدث صورها هو موقف يمثل خطوة أكثر تشددا وتصلبا فى مواجهة الدين . فلم يكن الحزب فى مراحل تكوينه الأولى يشترط أن يكون العضو ملحدا ، وخلت المواثيق الأولى من النص على واجب العضو فى محاربة الدين . وعلة ذلك عند المتتبعين لتاريخ الحزب أن كثيرا من العمال الثوريين كانوا فى تلك المرحلة من المتدينين . ولم يشأ الحزب أن يغلق عليهم باب المشاركة فى النضال أما فيما بعد فقد تغير الموقف بحيث أصبحت العقوبة الموقعة على كل من يعرف عنه المشاركة فى شعائر الدين من الأعضاء تصل الى الفصل من الحزب [3] . واتساقا مع هذا الموقف تصدى لينين لبعض المحاولات الفجة الأولى التى بذلت للمزج بين الدين والشيوعية ، وتسمية الشيوعية بدين العمل . ومن بين من ذهبوا ضحية لهذه الحملات أحد الشيوعيين التتار

---

(1) ميثاق الكومسمول ، (بالروسية) ، موسكو ، ١٩٧٣ ، ص ٧ .

(2) ميثاق الحزب الشيوعى السوفيتى (بالروسية) ، ص ٤٤١

(3) يقول لينين فى احدى تعليماته الموجهة الى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الروسى البلشفى : [أنا مع طرد كل المشاركين فى شعائر الدين من صفوف الحزب] انظر : ماركس ، انجلز لينين ، المرجع السابق ذكره ، ص ٣٩٥

واسمه سلطان جالييف . وكان هـذا الشيوعى يشغل منصـبا مرموقا فى مجلس مفوضى الشعب لشئون القوميات . وعندما نادى بضرورة تكييف الماركسية لتلائم ظروف المناطق الاسلامية السوفيتية وحتى لا تصطدم بعادات الشعوب المسلمة وتقاليدها ـ كانت النتيجة أن اعتبر من أعداء الشعب ، وتم القبض عليه، وطرد من الحزب . ثم انه اختفى تمـاما من مسرح الحيـاة ولا يدرى حتى الآن على وجه اليقين أحى هو أم ميت وان كان يعتقد أنه قد نفذ فيه حكم الاعدام عام ١٩٣٠ [١] .

ومنذ أخذ الشيوعيون بناصـية الحكم ودانت الشـعوب الاسلامية قهرا لحكم الحديد والنار اشتعلت نار الحرب ضـد الدين بهدف القضاء المبرم على وجوده ، واقتـلاع جذوره من النفس الانسانية . وحظى الاسلام ـ وما يزال ـ بنصيب وافر من هذه الحرب وذلك لأسباب سنعرض لها ان شاء الله فيما بعد.

ويمكن أن نوجز الأهداف الأساسية لما أطلق عليه « الثورة الثقافية » فيما يلى :

أولا : اعادة كتابة التاريخ ليتفق مع المنظور الماركسى من ناحية وليكون أداة لتحقيق الأغراض العملية للحزب والحكومة. وهكذا أصبحت دراسة تاريخ الاسلام ـ على سبيل المثال ـ تحتل مكانا ثابتا فى تصنيف العلوم ، اذ تعد أحد المباحث التى

---

(١) Wheeler; op. Cit, P. 20.

تكون فى مجموعها علوم الفلسفة الماركسية اللينينية . وبهذا التصنيف تتحدد لدراسة الاسلام منطلقاتها المنهجية وأهدافها العملية فى آن معا ، فاتجهت جهود المستشرقين السوفيت الى محاولة التماس تفسير مقنع لظهور الاسلام يتفق مع مواصفات الماركسية وفروضها [1] ، وينفى الصفة الالهية عن الاسلام وكتابه المنزل أصبح القرآن الكريم وشخصية النبى صلى الله عليه وسلم وسيرته وتاريخ صحابته محورا لحملات الافتراء والتشكيك . ولم يقتصر نشر هذه الأباطيل على قاعات البحث وأروقة الجامعات وانما تم نشرها كذلك فى صور مبسطة لتكون فى متناول جماهير المسلمين هدما للايمان وزعزعة للعقيدة [2] .

ثانيا : اثبات الماهية الطبقية للاسلام :

ويكون ذلك بتفسير نشأته وتطوره تفسيرا طبقيا ، واعتباره أداة لاستعباد الفقراء على مدى تاريخه الطويل . ويحظى تاريخ الاسلام فى آسيا الوسطى والقوقاز بنصيب وافر من هذه المحاولات حتى ان من يتصفح كتب التاريخ المقررة على مدارس الجمهوريات الاسلامية وغيرها يجد أن مظالم القيصرية كانت

---

(١) راجع فى هذا مقالنا بعنوان : « حول التفسيرات الماركسية لظهور الاسلام » مجلة المسلم المعاصر ، العدد السابع يوليو ١٩٧٦ .

(٢) راجع ــ على سبيل المثال ــ المواد « القرآن » و « اسلام » و « محمد » فى دائرة المعارف السوفيتية الكبرى ، وفى المعجم الفلسفى . (بالروسية) ، وكذلك دليل الملحد (بالروسية) .

نعيما مقيما اذا ما قورنت بمظالم الحكام المسلمين • وتؤكد هذه الكتب وجود تحالف دائم وثابت بين الخلفاء والأمراء وبين رجال الدين المسلمين هدفه استغلال الناس والاستئثار بالطيبات • وليس هذا التحالف — فى رأى مصنفى هذه الكتب — مناقضا لمبادىء الدين وموقفه من الحياة وانما هو تابع من هذه المبادىء ومتولد بالضرورة منها • ومن ثم نراهم يضفون هالات التمجيد على جميع الحركات الفوضوية التى شهدتها هذه المناطق ضد الخلافة ويحولون أمثال المقنع الخراسانى وبابك الخرس من مخربين فوضويين الى أبطال شعبيين قادوا نضال شعبهم ضد الظلم والقهر والحكم الثيوقراطى المتعصب [1] •

ثالثا : الزعم بوجود تناقض أساسى بين الدين والعلم :

ترى الماركسية أن النظرة العلمية مادية الحادية بالضرورة ، وأن المزيد من العلم طريق موصل الى نبذ الألوهية ، والايمان بسيطرة الانسان على الكون ، والى اكتشاف للقوانين المتحكمة فى حركة ظواهر الطبيعة والمجتمع حيث لا مكان — فى زعمهم — لارادة الله سبحانه • واذن فالدين عندهم أوهام وخرافات لا مكان لها فى العصر الحديث •

---

(١) انظر مثالا على ذلك : تاريخ الاتحاد السوفيتى موسكو ١٩٦٥ وكتابا آخر لشيوعى عراقى نال به درجة الدكتوراه من كلية التاريخ ـ جامعة موسكو وطبع بالعراق ، وموضوعه [نضال الشعب الاذبيجانى ضد الاقطاع العباسى] •

وقد نشأ عن ذلك عندهم ضرورة كتـابة جميع العلوم من منطلق انكار وجود الله ورفض التفسير الدينى لظواهر الطبيعـة والمجتمع ومحاولة اثبات بطلانه فى مواجهة « حقائق » العلم . وبذلك أخذت علوم كثيرة مثل الجيولوجيا والفلك والكيميـاء والطبيعة والأدب وغير ذلك منحى الحـاديا صرفا فى دراسـتها وتدريسها بحيث أصبحت أداة لتمكين الالحاد فى نفوس التلاميذ على مختلف المستويات والأعمار .

وقد أجرى قسم الالحـاد العلمى فى معهد جرتن للتربيـة استفتاء مع ١٦١٩ شخصا فى العام الدراسى ١٩٦٨/٦٧ . وكان السؤال الذى وجه اليهم هو : « أى العلوم فى رأيك يعد أكثر عونا على تكوين النظرة الالحـادية لدى الدارسين ؟ » وكانت الاجابات ما يلى [١] :

علم الفلك	١٣٣١ شخصا
علم الاحياء	١١٤٢ شخصا
علم الاجتماع	٩٨٠ شخصا
علم الكيمياء	٥٠٩ شخصا
علم الطبيعة	٣٢١ شخصا

(١) ب ارسينكين « القضايا الملحة فى الدعاية للالحـادية » موسـكو ، ١٩٦٩ ، ص ٢٨ ، (بالروسية) .

علم التاريخ	١٦٠	شخصا
علم الأدب	٩٥	شخصا
علم الرياضة	٣٨	شخصا

وعلى أساس من مثل هذه الاستفتاءات والبحوث والاستطلاعات يتم تخطيط المناهج وتأليف الكتب المدرسية والأبحاث لتحقيق الربط الزائف بين الالحاد والعلم •

رابعا : « التعميد » الشيوعى لشخصية الفرد :

هذا المصطلح من صنعنا ونطلقه على ما يسميه الكتاب السوفييت خلق انسان جديد مقطوع الصلة تماما بماضيه الدينى وانتمائه القومى • لا ايمان له الا بالوطن السوفيتى « المجيد » ولا تقديس الا للعمل الشيوعى ، ولا مطمع له فى ملكية خاصة، أقوال زعمائه هى كتابه المقدس ، والزعماء أنفسهم هم رسله وأنبياؤه ، والذين يقتلون تحت ألويتهم هم قديسوه وأولياؤه • وهكذا يتم تعميد الفرد ، ودخوله فى الدين الجديد • وما أصدق قول الله عز وجل : « ذلك بأنه اذا دعى الله وحده كفرتم وان يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير » (غافر ١٢) •

وفى سبيل تحقيق هذه الأهداف الأربعة تستخدم الوسائل الآتية :

١ ـ المدرسة .
٢ ـ النوادى وقصور الثقافة .
٣ ـ الكتاب .
٤ ـ الصحافة .
٥ ـ الاذاعة .
٦ ـ التليفزيون .
٧ ـ المسرح .
٨ ـ السينما .
٩ ـ المتحف .
١٠ـ النشاط الاجتماعى .

وقد أورد ن. بابلاكوف فى محاضرة له نشرتها « جمعية المعرفة » احصائية تبرز أهمية هذه الوسائل فى نشر الالحاد . وتذكر هذه الاحصائية أنه عندما طلب من ٨١٩ شخصا ارتدوا عن أديانهم ترتيب الوسائل التى كان لها تأثيرها فى اتجاههم الى الالحاد جاء الترتيب التنازلى لهذه الوسائل على النحو التالى :

المدرسة	٥٥ر٣ ٪
الدعاية الشفهية	٥٠ر١ ٪
برامج الاذاعة	٤٩ر٣ ٪
قراءة الكتب والمجلات	٣٦ر١ ٪

السينما	٢٧٫٦ ٪
النشاط الاجتماعى	١٦٫٩ ٪
الأقرباء الملحدون	١٣٫٦ ٪

ويتولى الاشراف على هذه السياسة وتخطيطها وتنفيذها وزارات التعليم والثقافة والنقابات المهنية « كنقابة الصحفيين واتحاد الكتاب » والنقابات العمالية . وتعمل جميعها تحت اشراف الحزب وتوجيهه . ويقوم الحزب بتخريج الكوادر المتخصصة فى ممارسة الدعاية الالحادية وذلك بواسطة أجهزته المتعددة [1] ومنها :

١ ـ معهد الالحاد العلمى بأكاديمية العلوم الاجتماعية التابعة للجنة المركزية للحزب .

ويتولى إصدار البحوث والدوريات واجراء الاستفتاءات واستطلاعات الرأى والاحصائيات ويضع ذلك كله تحت تصرف الأجهزة والكوادر المعنية .

٢ ـ مجموعات الحوار السياسى (لاجراء المحاورات والمناقشات) .

٣ ـ المدارس الحزبية (للحزبيين) .

---

(١) يراجع : البناء الحزبى ، (بالروسية) موسكو ، ١٩٧٤ ، ص ٢٣٨ — ٢٤٩ .

٤ ـ مدارس العمل الشيوعى (لغير الحزبيين) •

٥ ـ الجامعات الشعبية (وتقوم بتدريس أنواع متخصصة من العلوم بالاضافة الى علوم الماركسية اللينية) •

٦ ـ جمعية « المعرفة » لعموم الاتحاد السوفيتى •

(وتمارس نشاطها بالمحاضرات والمعارض والمتاحف والنشاط المسرحى والسينمائى واصدار النشرات والكتب) •

ومن حقنا أن نتساءل ـ بعد هذا العرض لسياسة الحكومة والحزب حيال الدين ـ عما آل اليه المفهوم الماركسى لمبدأ حرية الضمير •

ان الماركسيين يعلنون زيف المفهوم البورجوازى لحرية الضمير ، ويؤكدون أنه لا يكفل للملحد حقه فى اعلان الحاده كما يكفل للمؤمن حقه فى اعلان ايمانه ويسير النظر يهدى الى أن القيود الصارمة المفروضة على رجال الدين والمتدينين تحت الحكم الماركسى وقائمة المحظورات التى تكبل ألسنتهم ، ومجموعة التهم والعقوبات التى تنتظرهم ان فعلوا شيئا من ذلك أو اتهموا بفعله ـ كل أولئك اذا ما وضعناه فى كفة ميزان ووضعنا فى الكفة الأخرى حرية نشر الالحاد باستخدام كافة أجهزة الدولة والحزب التى سميناها لوجدنا أن المفهوم الماركسى لحرية الضمير انما يكفل حق الملحد فى اعلان الحاده ، ويعين بكافة الوسائل على نشر الالحاد بين المؤمنين فى وقت يحرم فيه

المتدين من أبسط حقوقه فى حرية المعتقد لأقسى وسائل الضغط المادى والنفسى لجره الى حظيرة الكفر والالحاد . واذن فما فضل مفهوم حرية الضمير عند الماركسيين على مفهومه عند البورجوازيين ؟ والآن لنعرض للكيفيات التى تستخدم بها هذه الوسائل لنشر الالحاد وفتنة المؤمنين عن أديانهم .

ففى مجال الكلمة المطبوعة يورد مؤلفو كتاب الالحاد « العلمى » [1] احصائية لها دلالتها . ففيما بين عامى ١٩٢٢ ١٩٢٩ بلغ عدد الكتب التى أصدرتها دار « الملحد » للنشر ٢٧٠ كتابا بلغت عدة النسخ المطبوعة منها ٢٤ مليون نسخة . وفى عام ١٩٣٠ فقط أصدرت الدار ٢١٨ كتابا بلغت عدة نسختها ٢٠ مليون وخمسمائة ألف نسخة . أما دار « الكافر » للنشر فقد أصدرت ما بين عامى ١٩٢٧ و ١٩٢٨ حوالى ٧٩ كتابا وفى عام ١٩٢٩ حوالى ١٣٧ كتابا وفى عام ١٩٣٠ حوالى ٢٢٤ كتابا .

وكان عدد النسخ التى تطبع من صحيفة « الكافر » عام ١٩٢٧ حوالى ٩٢ ألف نسخة زادت فى عام ١٩٣١ الى نصف مليون نسخة [2] .

---

(١) ا . ف . اكولوف وآخرون : « الالحاد العلمى » (بالروسية) ، ١٩٧٣ ، ص ٧٣ .

(٢) فى احصائية حديثة يذكر ل . بريجنيف أن عدد نسخ الكتب المطبوعة عن لينين واللينينية فى عامى ١٩٦٩ ــ ١٩٧٠ بلغ ٧٦ مليون نسخة (تقرير اللجنة المركزية للمؤتمر الرابع والعشرين ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ١٣٩) .

ولم يكتف الشيوعيون بهذه الأعداد الهائلة التى أغرقوا بها الاتحاد السوفيتى وانما اتجهوا منذ عام ١٩٣٢ الى اصدار صحف ومجلات الحادية باللغات القومية • واختصت المناطق الاسلامية بعدد كبير منها فصدرت منها صحف ومجلات فى أذربيجان وبشكير وجمهورية التتار وجورجيا ثم عمت هذه الصحف سائر أنحاء المناطق الاسلامية •

ومنذ الأيام الأولى للسلطة السوفيتية وحتى الآن [١] لم ينقطع سيل الكتب والنشرات والمقالات التى تتناول الاسلام بالتشويه والتزييف ومفاهيمه بالتحريف على حين يقتصر حق رجال الدين فى الدعوة الى الاسلام على مجلات معدودة تصدرها الادارات الدينية والخطب المنبرية الهزيلة مع خضوع ذلك كله لرقابة الحزب والدولة خضوعا مباشرا ، والتى يخطب أكثرها فى حبل السلطة بحيث صار ضررها على الاسلام والمسلمين أكثر من نفعها •

ويطول بنا المقام اذا حاولنا استعراض برامج الاذاعة والتلفزيون والمسرحيات والقصص والأدب الروائى الذى يقوم جميعه على أساس الحادى فلسفى ويهدف الى غرس الالحاد فى النفوس وتنشئة الأجيال عليه معلنين أن ذلك كله يتم فى اطار من عدم اهانة مشاعر المتدينين •

---

(١) أنظر مزيدا من التفصيل فى مقالنا « حول التفسيرات الماركسية لظهور الاسلام » والذى سبقت الاشارة اليه •

ولا ندرى ما يقصدون بعدم اهانة مشاعر المتدينين ، فلقد شهدنا ذات ليلة فى موسكو مسرحيـــة قدمهـــا مسرح العرائس بعنوان « الكوميديا الالهية » وقد فوجئنا بأن المسرحية لا تمت لكوميديا دانتى الا بصلة الاشتراك فى العنوان وأما مضمونها فكان عرضا بالدمى والعرائس لقصة خلق سيدنا آدم وأمنـــا حواء كما أوردتها الكتب المقدسة . وتظهر على المسرح من بين الدمى دمية كبيرة يمثلون بها ذات الله سبحانه فى صورة هزلية مقيته . وأذكر أن أبداننا كانت تقشعر لهول ما سمعنا من حوار يجرى على ألســـنة الدمى ، وزادنا ألما على ألم ما كان يختـــرق أسماعنا من ضحكات فارغة مجنونة تتردد أصداؤها فى القاعة سخرية واستهزاء بذات الله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله . وكان عزاؤنا فى تلك اللحظات الكابية ما كنا نردده من قول الله فى محكم كتابه : « من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين » (البقرة ٩٨) . وليت شعرى ان لم تكن هذه اهانة لمشاعر المتدينين فما تكون اذن ؟

وقد يعجب المرء حين يسمع أن المتاحف فى المناطق الاسلامية أصبح لها وظيفة أخرى غير مجرد الامتاع والافادة . انها أدوات ووسائل فعالة فى يد الملحدين لتشويه معالم الاســـلام وحمـــل معتنقيه على خلع ربقة الاسلام من أعناقهم . وأشهد أنى دهشت دهشـــة بالغة حين قرأت مقالا لـــكاتب يدعى آ . ستسكافيتش

تناول فيه قضية استخدام المتحف كوسيلة للدعاية الالحادية بين جماهير المسلمين [1] • وينعى الكاتب فى هذا المقال على المسئولين عن المتاحف قصور فهمهم لوظيفة المتحف • ويقترح اعادة ترتيب معروضات المتاحف ، واعادة صياغة الشروح المكتوبة على البطاقات المثبتة على هذه المعروضات وذلك تحقيقا للأهداف الآتية :

١ ــ اظهار الاسلام باعتباره ظاهرة تاريخية تخضع لنواميس التغير ، وليس حقا أزليا سرمديا باقيا الى يوم الدين •

٢ ــ التأكيد على التحالف بين الخلفاء والأمراء ورجال الدين لاضطهاد الفقراء واستعبادهم •

٣ ــ استخدام الآثار والصور التى يعرضها المتحف عن المدارس الدينية والكتاتيب للتدليل على وجود ارتباط وثيق بين التخلف العلمى والتعليم الدينى •

٤ ــ عرض وسائل الاستشفاء البدائية التى يستخدمها المشعوذون ونماذج من الرقى والتمائم والتعاويذ للتدليل على الارتباط بين الشعوذة والدين •

٥ ــ دفع المرأة فى المجتمعات الاسلامية الى اعلان التمرد

---

(١) نشر المقال ضمن مجموعة مقالات ضمها كتاب بعنوان :

« الالحاد والدين والعصر » (بالروسية) لينجراد ١٩٧٣ ، ص ١٣٠ ــ ١٣٦

والعصيان على الدين والأعراف والتقاليد ونبذ الحجاب . واعتبار الدين مسئولا عن تخلفها عن ركب « الحضـــارة الأوربية » .

ويوصى الكاتب بتخصيص جانب من المتاحف لتاريخ المناطق الاسلامية بعد ثورة أكتوبر لكى يوازن المشـــاهدون بين حال ، وحال ، وليربطوا بين التدين والتخلف وبين الالحاد والتقدم .

وينصح الكاتب المسئولين عن هـــذه المتاحف بأن يفصـــلوا فصلا حادا بين العادات والتقاليد القومية وبين غيرها من شعائر الاسلام . ويورد مآخذه على الطريقة التى اتبعها « متحف تاريخ شعوب أوزبكستان » فى طشقند فى اعتبـــاره الختان وتقـــريب الأضاحى من بين العادات والطقوس الشعبية . وفى رأيه ورأى الكثيرين أن الخلط بين مظاهر القومية ومظاهر الدين يؤدى الى اعتضاد كل منهما بالآخر على حين أن القضاء على كليهما فى آن واحد هو من أهم الأهداف التى يقصد اليها الحزب والدولة .

ولا يكتفى الملحدون بالعمل على الفصل الحاد بين العـــادات والتقاليد القومية وبين شعائر الاسلام بل أنهم ليعملون على ادخال طقوس وعادات وتقاليد بديلة قد يمتد بعضها الى تراث هـــذه الشعوب فى جاهلية ما قبل الاسلام أما غالبها فتعمل على تمييع الشخصية الدينية والقومية للشـــعوب واعطائها طابعا ســـوفيتيا

مقطوع الصلة بالاسلام والقومية التركية [١] .

ويعرض لنا كاتب آخر اسمه أ . ز . بيراموف فى مقال له بعنوان « خصائص نشر الالحاد بين أفراد المسلمين فى الاتحاد السوفيتى » [٢] نماذج حية ونصائح يرجى اتباعها لنشر الالحاد بين المسلمين هى قطعية الدلالة على تهافت مبدأ حرية الضمير كما تتبناه الحكومات الماركسية نظراً وتطبيقا . وسنورد نماذج هذا المقال نستدل بها لما نقول . وقد يطول الاقتباس بعض الشيء لكن عذرنا أن الكلام نص فى موضوع هذا المبحث الذى تتناول فيه وسائل نشر الالحاد بين المسلمين .

يتناول المؤلف الشروط الواجب توافرها فى الداعية الملحد من حيث القومية والسن والجنس فيقول فى اجابة على السؤال الذى يعتبره بيراموف هاما وخطيرا وهو : « من ذا الذى يعتبر أهلا للقيام بنشر الالحاد بين معتنقى الاسلام ؟ » يقول : « اذا كان داعية الالحاد الذى سيحاور المسلم لا تربطه بالاسلام أى

---

(١) يعالج أ . سليموف سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الأوزبكستانى هذا الموضوع فى مقال بعنوان « حول استخدام الطقوس والتقاليد الشعبية فى العمل السياسى الايديولوجى » . وقد نشر المقال فى مجموعة بعنوان : « من تجارب العمل الأيديولوجى » (بالروسية) ، موسكو ١٩٧٣ ، ص ٣٨٨- ٣٩٦ .

(٢) نشر المقال ضمن مجموعة مقالات فى كتاب بعنوان : « نشر الالحاد بين أفراد المتدينين » (بالروسية) وقد صدر الكتاب من معهد الالحاد «العلمى » التابع للجنة المركزية للحزب الشيوعى عام ١٩٦٧ وأعيد طبعه فى عام ١٩٧٤ ، ويشغل المقال الصفحات ١١٣ - ١٢٦ من ط ١٩٦٧ . وقد انجزنا ترجمة كاملة للمقال نشر بمجلة « الدعوة » السعودية على عددين .

رابطة قومية مشتركة ففى امكان المؤمن أن يفترض أنه انما ينقد الاسلام خاصة ولا يتعرض لدينه هو بشىء ، لذلك كان من السهل على الداعية الذى ينتمى والمؤمن الى قومية واحدة أن يجرى معه حوارا ، وخاصة اذا بدأ الحوار بينهما باللغة القومية المشتركة وان كان هذا لا يعنى أن علاقة المسلم بمن ينتمى الى قومية أخرى قائمة بالضرورة على عدم الثقة • وايا ما كانت قومية الداعية الملحد فلابد له من معرفة جيدة بالدين والعادات والتقاليد التى يتمسك بها المؤمن ، فخلال العمل بين المسلمين تعد مراعاة السن والجنس عند المؤمنين على جانب كبير من الأهمية ، ومن ثم كان الحديث الى كبار السن أيسر بالنسبة لداعية متقدم فى السن ، والغالبية العظمى من المسلمات يرفضن الحوار مع الأجنبى أما مع المرأة التى تقوم بالدعاية فانهن أفضل سلوكا الى حد كبير » •

أما أصلح الفئات للقيام ببث الالحاد بين المسلمين فيحددهم بيراموف على النحو التالى :

أولا : كبار السن من الشيوعيين : ويحدد دورهم بقوله :

« يعين الداعية الى الالحاد فى عمله الرأى العام الالحادى الذى هو مدعو لأن يقوم بتشكيله • ومن المعروف على سبيل المثال أن كبار السن يكتسبون نفوذا غير عادى بين المسلمين • وهذه الخاصية يستغلها كذلك الداعية حين يلجأ الى مساعدة الشيوعيين المتقدمين فى السن والذين يكونون موضع الاجلال فى

المنطقة اذ يصغى الناس فى العادة الى كلماتهم باهتمام خاص أو باستعداد لتنفيذ أى رجاء يصدر منهم .

وتمارس لجان الكبارالتى تؤسس فىمناطق السكنى والمؤسسات تأثيرا قويا فى تكوين رأى عام الحـادى ـ ففى كولوخوز ميد فى منطقة اشخاباد امتنع والدا طالبة بالصف العاشر اسمهاجولينا عطابيف عن ارسالها الى المدرسة وحاولا ارغامها على الزواج . وتكلم أعضاءلجنة الكبار فى الكولوخوز مع والدى الفتاة آكثر من مـرة وتوصـلوا الى اعادة الطالبـة الى المدرسـة . وفى سوفخوز « كيناس » يقوم أعضاء لجنة الكبار بعمل كبير ، اذ يزورون بانتظام البيوت التى يقيم فيها المؤمنون . وقد توصـل هؤلاء الأعضاء الذين اضطلعوا بمسـئولية دفن الموتى الى أن جعلوا تأثير الشيوخ الرسميين وغير الرسميين يتضاءل فى هـذه العملية الى حد كبير . وفى نشر الالحاد بين المسـلمين فى دار الالحاد العلمى بموسكو يعمل الشيوعيون المتقدمون فى السن مثل م . ش . شاجى أحمدوف و س . خ اسماعيلوف و ج . م اختيـافوف وكثير غـيرهم ، وهـم يزورون مسـاكن المؤمنين ويحادثونهم ويسدون اليهم النصيحة .

ثانيا : المرتدون حديثـا عن الاسـلام : وعن أثرهم يقول بيراموف :

ويساعد الدعاة مساعدة كبيرة فى صراعهم ضد التأثير الدينى

أولئك الذين ارتدوا حديثا عن الدين ، فارتداد انسان ذى شهرة فى قضايا الدين يصلح مثالا بالنسبة لبعض المؤمنين . وقد حقق الملحد قادر برنييوف من كولوخوز كيسيل يولد وزاخ جمهورية تركمانيا نجاحا كبيرا فى نشاطه الالحادى عندما دعا جماعة كانوا من أكثر المؤمنين تعصبا ثم ارتدوا عن الدين ليخطبوا أمام غيرهم من المؤمنين . وصار الذين ارتدوا عن الاسلام فى هذا الكولوخوز عونا للداعية يمارسون نشر الالحاد بين أفراد المؤمنين » .

ثالثا : العاملون فى ميدان الطب : اذ يرى المؤلف أن مثل هؤلاء العاملين يكسبون نفوذا كبيرا بين المسلمين وفى نقط العلاج الطبى يستقبل الأطباء مرضاهم للعلاج الصحى والاجتماعى . وهكذا يقدم الأطباء المساعدة الطبية ثم يدور الحديث حول موضوعات العلوم الطبيعية . وقد حققت نقط العلاج الطبى هذه فوائد جمة لقضية تربية السكان تربية الحادية فى مدن أوزيكستان وقراها . ولذا ، فان الطبيب ومساعده من أجود المرشحين لممارسة نشر الالحاد بين أفراد المسلمين .

رابعا : المعلمون : وهم يختصون فى رأيه بدور كبير فى الدعاية الى الالحاد ، فالبداية الأولى للتعرف الى الطفل تجعل فى امكان المعلم تحديد التأثير الدينى للعائلة ومهمته الأولى حينئذ هى اقناع الآباء بالامتناع عن تربية الأولاد تربية دينية ، ويمكنه

فى الوقت نفسه أن يؤثر تأثيرا الحاديا كبيرا على الآباء أنفسهم باقامة اتصال مباشر بينه وبين أسرة التلميذ .

وكثير من المعلمين لا يقصرون دورهم على تنشئة تلاميذتهم بحيث يشبون غير متدينين بل انهم يربون فيهم رسوخ العقيدة فى الالحاد ، والقدرة على مساعدة المؤمنين على التحرر من أغلال الدين . وقد نشرت صحيفة الكومسمول الأوزبكستانى واقعة طريفة عن رجل عميق الايمان اسمه غلام أكا أحضر الى طشقند « ماء مقدسا » من بخارى . وكم حاول أقاربه أن يقنعوه بأن هذا الماء لا يحوى أى شىء مقدس فلم يقتنع العجوز . غير أن ابنته وكانت تلميذة فى الصف العاشر وضعت نقطة من الماء المقدس تحت الميكروسكوب ودعت أباها أن يحدق النظر ، فقال الرجل فى دهشة : « ما هذه الديدان » ان نقطة الماء أكبر بمئات المرات . يا الهى ! لم أكن أتصور على الاطلاق أن فى الماء المقدس يمكن أن يوجد مثل هذه العدد من الميكروبات . انها معدية . ميكروبات . ألق هذا الماء يا ابنتى على الأرض فى الحال . هذه تجربة بسيطة قامت بها تلميذة أدت الى النتيجة المرجوة ولم تفلح فى تحقيقها محاولات الاقناع والشروح المسهبة » .

خامسا : اللجان النسائية : التى تؤدى فى رأيه دورا كبيرا فى ممارسة نشر الالحاد بين الأفراد من النساء المؤمنات . وقد أثرت تأثيرا طيبا فى كثير من مناطق سمرقند حين نظمت اللجان

النسائية فى نهار رمضان حفلات الشاى للنســاء الصــائمات فى الشقق والنوادي ولم يكن المؤمنات يرفضن الافطار فى مثل هذه الأحوال ، وبذلك كن يخطون الخطوة الأولى فى سبيل الانعتاق من الدين .

ومن الأمــور التى لها أهمية كبيرة فى نشر الالحــاد بين النساء تكوين رأى عام ضد الحجاب ، وضــد تزويج صــغار السن من البنات وضد المعاملة السيئة للمــرأة ، ففى كولخوذ « ألاتو » فى جمهورية « كيرقيزيا » يتحدث الملحدون الى الرجال أمام الزوار الآخرين قبل بداية أى اجتماع أو عرض ســينمائى ويقولون لهم على سبيل المثال : يا حسن (قل للناس لماذا أتيت الى الحفل بدون زوجتك ؟ وأنت يا مورزا أيضــا بين للنــاس لم فعلت ذلك ؟ وهنا كان بعض الرجال يصمتون . ولــكن كثيرا منهم كانوا يخرجون ثم يعودون ومعهم زوجاتهم . وهــكذا استطاع الملحدون أن يجعــلوا كل الرجال يحضرون الى أماكن الاجتماعات العامة ومعهم زوجاتهم » .

ثم يتناول بيراموف فى مقالة الوسائل التى تستخدمها هذه الفئات فى دعايتها ضد الاسلام فيبدى عليها الملاحظات الآتية :

أولا : لا ينبغى الهجوم المباشر على الاسلام :

ذلك أن « عميقى الايمان من المسلمين ربما كانوا أكثر عزوفا

عن حضور الامسيات والمحاضرات والمحـادثات الالحـادية من اتباع أى نظام دينى آخر ، ذلك أن القرآن يستنكر تناول الدين بالنقد ـ لذلك كانت المناقشات المباشرة المضادة للدين والكلمات العامة عن تهافته وضرورة لا تجدى نفعا . ذلك أن أى طعـن على الاسلام يعتبر اهانة صارخة لانسـان رضـع مع لبن أمه التصورات الدينية التى يشاركه اياها أجداده وأجداد آجداده » وفى مثل هذه الأحوال نجد مثل هذا الانسان اما أن ينعلق على نفسه واما أن يهيىء كل أرادته وعقله من أجل المقاومة ولكنه لن يميل بحال الى قبول حديث عن الالحـاد ، فليس سـهلا على الانسان أن يتخلى عن العقيدة التى نشأ عليها .

ولهذا كله لا يمس الدعاة المجربون الدين مسـا مباشرا فى محادثاتهم أثنـاء ممارسـتهم نشر الالحاد بين أفـراد المؤمنين ، ولكنهم بعد أن يبدأوا باثارة فضول المؤمن يتحولون الى نقـد الدين ، وها هو ذا مثال نسوقه للمعلمة ب وليفا من كولخوز « أكتوبر » فى ضواحى سمرقند ، ففى المنزل عندها تجرى هذه المعلمة محادثات مع المتدينات حين يفدن عليها كل مسـاء لشرب الشاى والاسترواح ، وذلك دون أن تشعر آيا من المشتركات فى الحديث أنها مدعوة الى نبذ دينها ويدور الحوار فى يسر وبلا تكلف عن أحداث العالم وأنباء الكولخوز ، لكن ربة المنزل هى التى تحدد لون الحديث ثم توجـه الكلام تدريجيـا ودون أن تلحظ الأخريات الى الموضوع المقصود فتطرح الأسئلة ثم تتولى

هى بنفسها الاجابة وحينما يستولى موضوع الحديث على ألباب المؤمنات حينئذ فقط تبدأ فى الكلام بحرارة واقناع عن ضرر الرواسب الدينية .

وهذه قصة يرويها ملحد من موسكو يسمى ل . خ جوميروف تمكن من اخراج العاملة رحيمة بارانجلوقا من دينها ، يقول الملحد : « أخذت بصفتى ملحدا أزور شقة العاملة « رحيمة » وكنت أحادثها طويلا وأقرأ الكتب جهرا ، وكانت رحيمة تصمت فى أكثر الحالات ولكنها كانت تصغى الى باهتمام وكان واضحا أن هذه القصص تجذب اهتمامها ، من العسير أن تتصوروا الأمر لقد سمعت منى لأول مرة عن الأبطال بين النساء السوفيت وعرفت لأول مرة أسماء المشتغلات بالعلم من السوفييت ، وتكلمنا معا عن غزو السوفييت للفضاء وقد أزعجها كثيرا هذا الموضوع وأذهلها على وجه الخصوص أن رجال الفضاء لم يخافوا الله بل ربما خافهم الله ما دام لم يحل بينهم وبين أن يصعدوا الى مثل هذا الارتفاع ، وكان على ل . ج . جوميروف. أن يحادثها طويلا الى أن خلعت « رحيمه » ربقة الدين من عنقها نهائيا .

ثانيا : الاستعانة بالرأى العام الملحد :

« فمن الأيسر على الداعية الى الالحاد أن يحقق النجاح عندما يكون الرأى العام بين المجموع مكيفا على نحو لا

يفخر فيه الناس بتعليق آيات من القرآن فى منازلهم بل يــكون مدعاة الخجل أن يعلقوا الآيات أو أن يقســموا المنزل نصــفين نصفـه للرجال ونصف للنساء أو أن يرفضوا الغداء فى نهــار رمضان أو أن يقوموا بختان أولادهم .. الخ والملحد نفســه يشكل الرأى العام الى حد كبير يقص علينا أ . ب . أملستينوف وهو أحد الملحــدين فى شــمال القوقاز » أن عليمــه جاجيد زونقاشبيز وخوفا وهى المشاركة فى النشــاط الاجتماعى كانت أول من امتنع عن اقامة المراسم الدينية فى زواج ابنتها ، وقــد وجدت لها فى الحال اتباعا ، ويدلنا هذا على أن تلك المراسم قد فات أوانها منذ زمن بعيــد ، وما أسرع ما انتشرت الأنبــاء فى المنطقة عن زيجات جديدة تتم بمشاركة الأوساط الاجتماعيــة وبدون مراسم دينية وهكذا انتهت مثل هذه الزيجات الدينية فى اركينخاك وغيرها من المناطق .

ثالثا : مزج الدعوة الى الالحاد بعرض حقائق العلم :

اذ لابد من العمل على نشر الالحاد بين المؤمنين المســلمين من أن تستغل فى براعة اللهفة الى المعرفة ، ذلك أن الاسلام فى زعمه انما يضيق اهتمامات معتنقيه ويحددها لكى يثبت الجهل ، ومن ثم يقول المؤلف : « ولابد ان نضع الاسلام فى ناحية والعلم والحضــارة من ناحية أخــرى كطرفى نقيض . اذ ان العــلم والحضارة وحدهما هما الكفيلان بحق بتلبية رغبات السوفييت

فى المعرفة ، وليس من قبيل المصادفة تلك النتائج الايجابية التى حققتها أحاديث الملحد قادر بيرنيسوف ــ وهو من كولخوز كيزيل يولدرز ــ فى جمهورية تركمانيا ــ مع المتدينين ، لقد استطاع أن يستخدم انجازات العلم فى تفنيد التصورات الدينية أما الملحد رحمن خوفا ميردييف ــ وهو مدير مدرسة كيرفا فى جمهورية اوزبكستان لقد سمع مرة أحد عمال سكرلخوز واسمه « رسول جمعاييف » يقول فى حوار معه : « لا قدر الله علينا بنزول البرد » وهكذا تبين مدير المدرسة أن المتحدث اليه رجل مؤمن أدرك هذا ولكنه لم يعر الأمر اهتماما . وأجرى الحديث معه لا عن الله بل عن ظواهر الطبيعة وعن ماهية البرد والمطر وكان يتكلم بطريقة مشوقة جذبت انتباه عامل المزرعة فأخذ هذا يرجو أن يزوره ضيفا ، وشرع الملحد يزور عائلة جمعاييف ، وكان يبرهن للعائلة باستعمال أمثلة من الحياة بسيطة وسهلة الفهم على عدم وجود قوة ما فوق الطبيعة تمنح الانسان خيرات الحياة . وان الانسان نفسه هو خالق سعادته ، وهكذا قطع « رسول » علائقة بالدين . وقد أجرى ب خوما ميردييف ، أحاديث مع أحد المشايخ واسمه « تور » كانا يتقابلان عشرات المرات ، وفى هذه اللقاءات عرف هذا الملحد الشيخ « تور » بمنجزات العلم والتكنولوجيا فى الاتحاد السوفيتى ، ورحلات سفن الفضاء ، كما كان يحدثه عن المجتمع الشيوعى ، ثم ان الملحد أطلعه على الجوهر الطبقى للاسلام وفى مصلحة من كانت عقيدة القضاء والقدر ، وهنا أعلن الشيخ « تور » فى اجتماع

عام لعمال الكولخوز أنه لا يريد بعد الآن أن يعيش هذه الحياة الطفيلية ، وأنه بالرغم من كبر سنه يود أن يعمل فى الكولخوز.

رابعا : اثارة الشك فى الهية النص القرآنى يقول بيراموف :

« وبعد قدر مناسب من التمهيد والاعداد للمؤمن يمكن لداعية الالحاد — بل يجب عليه — أن يدلى بنقد شامل للقرآن وعليه أن يقوم بهذا العمل على مراحل يعبر الداعية الملحد فى أول الأمر عن شكوكه فى كون هذا « الكتاب المقدس » من عند الله متسائلا : هل القرآن حقا وحى من الله ؟ وهل محمد حقا رسول الله ؟ ثم يسرد الملحد الذى يدير الحوار للمؤمن الأسباب الدينية لظهور هذا الكتاب . وعند تحليل هذا الكتاب المقدس يجب أن يكون استشهادات الملحد بالقرآن غاية فى الدقة ، لأن أقل انحراف أو تغيير للنص يعتبره المؤمن انحرافا وتحريفا وتزييفا متعمدا الهدف منه الطعن على القرآن .

وعلى الملحد — تدريجيا ودون اهانة لمشاعر المؤمن — ان يهيئه للتأمل « فى كلمات الله » ويبدأ الملحد فيفترض أن الوحى الالهى الحقيقى لابد أن يكون أصيلا خاليا من التناقض والشكوك حول العقيدة ، كما ينبغى أن يكون خاليا من القواعد الفارغة التافهة التى هى مفهومة بدونه لأى انسان » .
ثم يقول بيراموف :

« ويمكن البرهنة على عدم أصالة الوحى الالهى باطلاع

المؤمن على الكتب الأقدم ـ وعلى سبيل المثال ـ على الكتاب المقدس الذى اقتبس منه ثلث القرآن . وقد أحصى علماء الكلام أنفسهم مائتين وخمسا وعشرين تناقضا فى القرآن . ويمكن للملحد أن يستشهد بالتناقضات التى تسترعى الانتباه من النظرة الأولى . فبالرغم من أن القرآن ـ فيما يقال ـ كلام الله الا أن السرد منه يأتى مرة باسم الله ومرة باسم محمد وثالثة بضمير الغائب وكذلك التناقض فى عقيدة القضاء والقدر ، فالحسنات ـ كما يقول ـ هى من عند الله .. والسيئات مرجعها الى الارادة الانسانية الخاصة ـ واذن فأين والحال هذه ما يقال عن قدرة الله المطلقة كذلك يقول القرآن فى أحد المواضع أن الحياة الاخرة تبدأ بعد موت الانسان وفى موضع آخر أنها تبدأ بعد بعث الموتى ، وهكذا » .

خامسا : استخدام الفنون فى عملية نشر الالحاد :

وعن ذلك يقول بيراموف :

ان الاسلام يفقر الشعوب ويستنزفها من الناحية الروحية ، وفى امكان الداعية الملحد أن يساعد المؤمن على أن يسد فراغا فى حاجته الطبيعية الى الجمال وشوقه الى الأروع ، ويستخدم الملحدون فى موسكو الأشكال المتنوعة للتربية الجمالية بمهارة فى نشر الالحاد بين أفراد المؤمنين . فهناك فنان فى موسكو يسمى « أحمد تيتاييف » يفد الى الشقق التى يسكنها المؤمنون من

التتار ويقص عليهم كيف أن الاسلام عامة هو ضد تطور الفنون الجميلة ثم يطلعهم بعد ذلك على نسخ من لوحات الفنان الاوزبكستانى تانصكبابيف والفنانين الازربيجانين م • عبد اللاييف و ت • صلاحوف • و خ • يعقوبوف وغيرهم ، وهكذا يتوافر للمؤمنين فرصة الاقتناع بأن التحرر من قوانين الشريعة الاسلامية جعل الفن فى متناول الشعوب التى كانت تدين بالاسلام فتغلغل فى حياتهم ليرضى تطلعاتهم الطبيعية نحو الأروع ويمكن أن تضرب مثلا آخر لذلك أ • س • اسماعيلوف المعلمة بمعهد الكونسرفتوار بموسكو انها تأتى الى المؤمنين فتحدثهم عن الالحاد فى الأغانى الشعبية التتارية ثم تدير فى أثناء الحديث أشرطة تسجيل لهذه الاغانى ويستمع المؤمنون فى هذه المرة الى الألحان والكلمات المعروفة لهم بفكرة جديدة •

وكذلك يستخدم الداعية أحمد سيتاروف فى أحاديثه الانتاج الكلاسيكى ويؤثر تطور التتارى والبشكرى والأمثال والأقوال الشعبية •

ويؤثر تطور حفلات النشاط الفنى التى تقام بالمجهودات الذاتية أثرا الحاديا كبيرا ، فالعمل فى مسرحية الحادية يربى أولا « قبل كل شىء من يشارك فى هذا النشاط الذاتى ، وقد صارت الفتاة « ليال ميتوبابيفا » ــ على سبيل المثال ــ ملحدة راسخة العقيدة فى الالحاد بمشاركتها فى حفلات النشاط الفنى التى تقام بالجهد الذاتى وأدت فى ذلك دورا ليس بالهين الأشعار التى

كانت تلقيها « ليال » والتى ألفها « جابرون توكاى وموسى جليل » .

سادسا — فك الارتباط بين الاسلام والأخلاق :

يقول بيراموف أن لقضايا الأخلاق فى العمل على نشر الالحاد بين مناصرى الاسلام أهمية خاصة ، ذلك أنه فى أمكانك أن تسمع فى أى حوار مع كثير من المسلمين قولهم : « اننا لا حاجة لنا بالمشايخ فلقد أوردوا أنفسهم موارد الشبهات منذ زمن بعيد . لكننا نعتقد أن الايمان بالله ضرورى فى المرتبة الأولى لكى يحافظ الناس على أخلاقياتهم » .

ويركز وعاظ الدين الاسلامى تركيزا خاصا على ما يزعمونه من دور أخلاقى للاسلام فيتكلم الأئمة فى كل خطبة من خطبهم تقريبا على احترام الكبير وعن مضار التدخين والخمر ، ويستنكرون الكذب والانانية ، وينصحون الشباب بامتلاك أسباب العلم وتدعيم الأسرة ، غير أن كل هذه الكلمات الطيبة رياء ونفاق — وعلى الدعاة المجربين أن يفضحوا زور هذه الكلمات وأن يوضحوا الجوهر الأصل المعادى للشعوب فى التعاليم الأخلاقية الاسلامية والتى تعكس الكراهية لمن ينتمون الى عقيدة أخرى وتنشر مبدأ الخلاص الذاتى وهو مبدأ غاية فى الأنانية كما تشجع مبدأ اعتزال الحياة الدنيا والمعاملة اللاأخلاقية للمرأة .

وعلى دعاة الالحاد أن يضعوا فى مقابلة عبارات الأئمة الطنانة المنافقة عنايتهم الاخوية بالمؤمنين ومساعداتهم على أن يعدوا لهم مكانا حقيقيا فى الحياة ، وعلى الداعى الى الالحاد أن يكشف النقاب عن تعاليم الاسلام المنافقة بضرب أمثلة محدودة مثال ذلك ما فعله فى موسكو الداعية « صالح خارسوفتش اسماعيلوف » حين أقنع فتاة برفض اقامة طقوس الزواج مستخدما ترجمة لآيات من السورة الرابعة من القرآن • لقد حضرت الفتاة من قبل مراسيم الزواج غير مرة ولم تر بأسا فى ان يبارك الشيخ العروسين ، ففى ذلك مسرة للآباء ، ولكن صالح اسماعيلوف ، ترجم لها الكلمات العربية التى لا تفهمها من القرآن التى تقول للرجل انكح ما طاب لك من النساء مثنى وثلاث ورباع وتقول واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن ، وكثير من الآيات المشابهة الأخرى ، وحينئذ أدركت الفتاة الجوهر اللا أخلاقى للاسلام ورفضت نهائيا أن يحضر الشيخ زواجها •

سابعا ــ تقديم بدائل للجانب الاجتماعى من شعائر الاسلام :

يقول بيراموف ان الاسلام يرضى بطريقة شوهاء رغبة الانسان فى التواصل الاجتماعى ، فصلاة الجماعة التى يكون فيها الجميع كالفريق يركعون ويقومون من الركوع ثم يسجدون جميعا هذه الصلاة تربط كل المشاركين فى العبادة بمزاج واحد :

يعتبر المسجد بالنسبة للمؤمنين المسلمين مكانا للتواصل الاجتماعى قبل الصلاة وبعدها • لذلك فان ارضاء الرغبة التى تميز الانسان فى التواصل الاجتماعى ولكن بصورة لا دينية تعتبر واحدا من أهم أهداف العمل على نشر الالحاد بين أفراد المسلمين • ولابد من توجيه الاهتمام فى هذا الشأن الى تنظيم وقت الفراغ عند المؤمن بحيث نساعده على قضاء وقت ممتع ومفيد • وهكذا ينجز الدعاة فى دار الالحاد العلمى بموسكو مجلات شهرية بشكل منتظم تحت عنوان « أريد أن أعرف كل شىء » يدعى اليها معتنقو الاسلام الى جانب المؤمنين الآخرين •

ويشكل تدعيم الصداقة بين من ينتمون الى قوميات مختلفة جانبا كبيرا من الدعاية الالحادية والمؤثرة ، فمثل هذه الصداقة تقضى أولا وقبل كل شىء على العزلة القومية التى يزكيها الاسلام وبهذه الطريقة نفسها تتزعزع قواعد الدين •

ويمكن للداعية أن يستغل رغبة المؤمن فى التواصل الاجتماعى عند ممارسة العمليات التربوية فى مناطق السكنى •• وهكذا أسست مجموعات النشاط الاجتماعى فى منطقة « جدانوفا » فى موسكو جامعة ثقافية اكتسبت شهرة شعبية كثيرة بين المؤمنين • وفى منطقة « سفرولوفا » لم يكتف الملحدون بتنظيم المحاضرات والأحاديث للمؤمنين فحسب بل نظموا كذلك زيارة مشتركة للمسارح والمتاحف والمعارض • أما مجموعات

النشاط الاجتماعى فى منطقة « كويبشفسكى » فتقوم بالاشتراك مع العاملين بالمكتبة رقم ١٠٦ بدعوة المؤمنين بانتظام الى فنجان شاى ، وأثناء الحوار حول مختلف الموضوعات تدور مناقشات المكتبات من سلسلة « أحاديث عن الدين » .

ويصل بيرالوف من عرضه الوافى لوسائل نشر الالحاد الى القول بأن الملحد حين يحرر بالتدريج وعى المؤمن من تأثير الاسلام ويهيىء الظروف من أجل التلبية الكاملة لحاجات الناس الاخلاقية والجمالية وكذلك لرغباتهم فى التواصل الاجتماعى والمعرفة ــ انما يقوم بمهمة كبيرة وخطيرة . ان من يتحولون عن الدين سيفهمون الحياة فهما جديدا ويحسون فى أنفسهم بالسعادة .

انتهى كلام أ . ز . بيراموف عن الوسائل المتبعة لفتنة المسلمين عن دينهم على أرض السوفييت حيث يزعم الزاعمون ــ ومن بينهم رجال الدين الرسميون هناك ــ أن حرية الضمير مكفولة ، وأن الدولة والحزب الشيوعى لا يتدخلان فى شئون الاسلام ولا يحاربانه . ولا نجد فى هذا المقام أوفق من كلمات نعمان عشيروف التى علق بها على خطبة امام مسجد لينينجراد لنعلق بها نحن على كلمات أخيه فى الالحاد أ . ز . بيراموف فنقول : « ان كلام بيراموف دال بذاته ولا حاجة بنا الى زيادة أو نقصان » .

خامساً

نظرة إلى المستقبل

ثمة مقولة هى محل اجماع بين المشتغلين بنشر الالحاد بين المسلمين فى الاتحاد السوفيتى • وخلاصة هذه المقولة أن المناطق التى ينتشر فيها الاسلام كانت وماتزال من أمنع المناطق فى مواجهة عمليات نشر الالحاد على شراستها ، وتعدد مسالكها ، واحتشاد الدولة والحزب لها بشتى الوسائل والطرق • ان أثر الاسلام بين الشعوب المسلمة هناك مايزال قويا وعميقا وان كان الملحدون لا ييأسون •

لقد قرأنا من قبل كلمات لينين التى ينصح فيها بالتزام الصبر والأناة مع المسلمين لأن سيطرة رجال الدين عليهم ما تزال قوية [1] • كان ذلك فى الأيام الأولى من عمر سلطة السوفيينت ويبدو أن الأمر مايزال كذلك بعد مرور أكثر من ستين عاما على قيام الثورة •

ولكى نؤكد أن هذه المقولة محل اجماع نسوق عبارة وردت فى مقال يابلاكوف ـ الذى سبقت الاشارة اليه ـ يقول فيها « توجد أعلى نسبة للتدين فى تلك المناطق التى كانت قبل ثورة

---

(١) انظر ص ١١ من هذه الرسالة

اكتوبر « العظيمة » متخلفة اقتصاديا وثقافيا . وما يزال تأثير شعائر الاسلام حتى الآن ـ على سبيل المثال ـ قويا وباقيا فى آسيا الوسطى . وتقدر الباحثة م . جباروقا أن عملية الختان تجرى لمعظم الصبيان فى شمالى تاجيكستان وجنوبيها كما أن جميع المسلمين تقريبا فى مدينة كولباب يصومون رمضان [1] »

ويعترف بيراموف بأن « لنشر الالحاد بين أفراد المسلمين خصائصه وصعوباته وتعقيداته [2] » كما يعترف بأن « تأثير الاسلام لا ينتشر عن طريق الأئمة فحسب ، بل كذلك عن طريق المواظبين على زيارة المساجد وعن طريق المشايخ المتجولين والمتدينات من العجائز ، أولئك الذين يستغلون نفوذ التقدم فى السن ، وهو نفوذ واسع الانتشار بين الشعوب الشرقية . ويؤثر الرأى العام الذى يكونه هؤلاء أيضا على غير المؤمنين ، فعندما نجد الانسان غير المؤمن الواقع تحت تأثيرهم لا يعلق على جدران شقته ـ مثلا ـ آيات من القرآن ولكن زوجته لا تجرؤ على الجلوس الى مائدة واحدة مع الرجال ، أو نجده لا يصوم رمضان ولكنه يحتفل بعيد الأضحى ، أو نجده لا يحضر الجمعات فى المساجد ولكنه يقوم بختان ولده ، مثل هذا الانفصام فى الشخصية يهيىء التربة الصالحة للمتدين . وعندما يحضر غير المؤمنين عيدا دينيا فانهم لا يختلفون من حيث المظهر عن المؤمنين فى شيء : نفس الكلمات ونفس الاهتمامات . وهذا السلوك

---

(1) يا بلكوف ، المصدر السابق ذكره ، ص ٢١ .

(2) بيراموف : المرجع السابق . .

يؤثر بالسلب على المتدينين بترسيخ تدينهم ، وعلى الشباب الذين يقلدون الكبار . انهم « فرملة » لها خطرها فى سبيل الداعية الملحد [1] . ومن ثم يرى انه ليس من قبيل المصادفة أن يتجمع الكثيرون فى الأعياد الدينية حتى من غير المؤمنين فى الشارع قرب المسجد [2] .

ويتفق س . فربانوف مع هذه النتيجة فيقول : « ان وعى الغالبية العظمى من الشباب السوفيتى قد تحرر من رواسب الدين . وأصبح الالحاد صفة لا تنفصم عن البنية الروحية لفتياننا وفتياتنا . غير أن بعض شبابنا ما يزال خاضعا لتأثير الدين . وفيما يتعلق بالاسلام ، هناك أسباب كثيرة جعلت تأثيره على الفتيات والفتيان ما يزال أقوى من غيره من الأديان [3] » .

ويبحث الملحدون السوفيت عن أسباب لاستمرارية تأثير الاسلام على معتنقيه حتى من الشباب وصموده فى مواجهة حرب متطاولة نيفت على ستين عاما تحت الحكم الشيوعى وحده ، فيراها بعضهم راجعة الى التخلف الاقتصادى والسياسى والثقافى التى عانت منه المناطق الاسلامية قبل اكتوبر ، ويرجعها بعضهم

---

(١) بيراموف ، ص ١١٤ .

(٢) بيراموف ، ص ١٢٢ ــ ١٢٣ .

(٣) فربانوف : « الاسلام والشباب فى العصر الحديث » (بالروسية) . وقد نشر المقال فى مجموعة بعنوان « الشباب والالحاد » موسكو ١٩٧١ . ص ٩٠ .

الى الالتحام الشديد بين القومية والدين عند الشعوب المسلمة ، اذ أن التفريط فى شعائر الدين عندهم هو مرادف لضياع شخصيتهم القومية وانهيارها ، وهذا ما يعده قربانوف مسئولا عن أن الشعوب المسلمة « تتميز بأعلى درجات التدين فى الاتحاد السوفيتى » [1] ويمضون فى التماس الأسباب حتى ما كان منها ساذجا لا يمكن أن يصلح تعليلا لمثل هذه الظاهرة الخطيرة فيقول بعضهم أن زوار المسجد يفدون اليه « تحت تأثير عظات المشايخ التى يلقونها بلغاتهم القومية بطريقة مؤثرة وسط مظاهر الاحتفال كذلك فان الجبة الشرقية والعمامة اللتين يرتديهما الشيخ والطنافس والزخارف والوضوء والهدايا تبتعث أحاسيس الطفولة كما تجتذب حركة الصلاة الجماعية الزائر الى المشاركة المباشرة فى العبادة » [2] وثمة احصائيات لها دلالتها [3] على استمرارية تأثير الاسلام على معتنقيه حتى الآن . فقد وجه الى ٦٩٤ شخصا من الكازاخ السؤال الآتى : « هل تؤمن بوجود الله ؟ » فأبدى ٣٩٫٦٪ اقتناعا جازما وأجاب ٢٩٫٦٪ بقولهم : « لا نعلم » .

وفى أحياء قازان اعتبر ٢٥٫٧٪ أنفسهم من المتدينين ويصل هذا الرقم فى نورلات العليا « جمهورية التتر » الى ٣٤٫٥٪ وكان من بين من قرروا انهم متدينون شباب .

---

(١) قربانوف ، السابق ص ٩٢ .

(٢) بيراموف ، السابق ص ١٢٣ .

(٣) أورد هذه الاحصائية قربانوف فى مقاله المشار اليه (ص ٩٢ – ٩٤) .

وأثبت البحث الاجتماعى أن الغالبية العظمى من سكان فرغانة وبخارى وكاشكادار (بنسبة ٨١٫٩ ٪) يحرصون على سنة الختان . كما أن صوم رمضان فى هذه المناطق يحرص عليه حتى الأطفال . ولوحظ فى أنحاء جمهورية فيركيزيا حرص الأسر على تناول طعام الافطار بشكل جماعى وأن هذا العمل اشتركت فيه ستة آلاف أسرة .

ويحكى لنا قربانوف أن الأباء فى المناطق الاسلامية يحرصون كل الحرص على تلقين أبنائهم قواعد الاسلام وفقه العبادات والسيرة الشريفة . وقد قامت الشرطة السوفيتيه فى فرغانة باكتشاف وضبط مدرسة خاصة « خارجة على القانون » تضم ثلاثة وعشرين طفلا أقامها السكان لتفقيه أبنائهم فى دينهم الى جانب التحاقهم كتلاميذ عاديين بالتعليم العام . واكتشفت محاولات مماثلة فى أندريجان وناما بخان وداغستان وغيرها [١] .

هذا ما يعترف به القائمون على دراسة ظاهرة التدين وبث الالحاد بين المسلمين فى الاتحاد السوفيتى . وهذه كلها شواهد تدعو الى الارتياح والتفاؤل لكن من الخطر أن نسىء تفسيرها . ان هذه الشواهد لا ينبغى تفسيرها بأن كل شىء هناك على مايرام ، وأنه لا خوف على الاسلام ولا على المسلمين من أى محاولات لتفتنهم عن دينهم . انها — على أحسن الفروض —

---

(١) نفس المرجع والموضع .

تشير لنا بأن الأوان لم يفت بعد ، وأن فرصة العمل ماتزال مواتيه . وأن أى محاولة تبذل لتحسين أحوال المسلمين وتمكينهم من أن يعبدوا الله دون ضغط أو خوف ، واستنقاذهم من براثن السلطة الحمراء يمكن أن تؤتى ثمارها ولن تذهب أصداؤها هباء .

ان الاسلام هناك هو أشبه شيء بجسد قوى جريح تنزف دماؤه منذ زمن بعيد حتى أصبح الخطر يتهدده وعلت وجهه صفرة الموت ولكن عرام القوة الأولى وعنفوانها مايزالان يحفظان على هذا الجسد رمقا من الحياة .

وعلينا الآن أن نبحث عن العوامل التى حفظت على الاسلام حياته فى مواجهة قرون طويلة من ظلام العسف والقهر تحت حكم القياصرة القدامى والجدد ، ثم ننظر فى مصادر الخطر الذى يتهدده وتتحفز لازهاق أنفاسه ، فقد يكون فى ذلك معين على تبين مواقع الخطى وتحرى الطريق لأداء دين الله فى أعناقنا نحو اخواننا الموحدين فى هذه البقاع من أرض الله .

وأما عن عوامل القوة والبقاء فمنها ما يرجع الى الاسلام فى ذاته ومنها ما يمكن رده الى الظروف الموضوعية لهذه الشعوب. فاما ما يرجع منها الى الاسلام فى ذاته فيمكن ايجازها فيما يلى :

أولا : بساطة العقيدة واتساقها مع فطرة الله التى فطر الناس عليها ، واحترامها للعقل ووضعه فى موضعه السليم من مصادر

المعرفة ، وتلبيتها لحاجات الروح • كل أولئك يجعل تأثير الاسلام قويا فى النفس ، ويجعل الارتداد عنه عملا فى غاية المشقة على المسلم • ان دعاة الالحاد هناك يلاحظون « أن كثيرا ممن ارتدوا عن الدين وقطعوا علائقهم بالاسلام منذ زمن بعيد يستمر لديهم الاحساس بالنفور من لحم الخنزير الى آخر أيام حياتهم كما يستمر الاتجاه الى العزلة القومية والتعلق بالأعياد الاسلامية »[1] •

وحدثنى بعض اخواننا من المسلمين السوفييت ـ وقد التقيت واياه فى مسجد موسكو بعد الصلاة ـ قال : « ان كثيرا من أبناء المناطق الاسلامية ممن يشغلون مناصب حزبية أو حكومية مرموقة يمضون معظم حياتهم فى الحديث عن مناقضة الاسلام للعلم ووجوب التحرر من عقدة الدين حتى اذا ما حضرهم الموت كانت وصيتهم لذويهم أن يدفنوا بمقتضى الشرع وأن يتلى القرآن خلف نعوشهم وعلى قبورهم » وهذا من عجيب حكمة الله فى أمر هذا الدين •

ثانيا : ان كثيرا من شعائر الاسلام تمارس فى المنزل وفى جو الأسرة ويقوم بها الكبار أمام الأبناء وهذه خاصية يمتاز بها الاسلام عن كثير من الأديان الأخرى • مما يؤدى الى زيادة تأثير الأسرة المسلمة على أبنائها فتقوى لديهم « الانطباعات والمشاعر الدينية منذ الطفولة ويتعود الانسان منذ نعومة أظفاره على منظر

---

(١) بيراموف ، السابق •

سجادات الصلاة ، وعلى أداء الصلاة ، وترانيم الأذان من فوق المنارة ، وعلى هالة الاحترام التى تحيط الأسرة بها طعام الافطار فى رمضان » [1] .

ثالثا : ان شمولية الاسلام وتشكيله لحياة الفرد والمجتمع سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وشمولية شعائره بحيث تغطى حياة الفرد منذ ميلاده ــ وربما قبل ذلك ــ الى مماته تجعل مهمة القضاء التام عليه واقتلاع جذوره من أرض المجتمع ومن نفسية الفرد عملا غاية فى الصعوبة . وخذ مثلا على ذلك سنة الختان التى أصبحت فى البلاد الشيوعية رمزا بسيطا وعميق الدلالة على انتماء المسلمين الى اسلامهم . وقد جهدت السلطات للقضاء عليها وجندت لذلك ما جندت وسنت العقوبات فى بلغاريا لمن « يرتكبها » من الآباء ولكنها لم تحقق فى هذا المجال نجاحا حتى مع الملحدين أنفسهم . لقد جعل الختان الطفل المسلم منذ بواكير حياته الأولى يعيش وفى أعماقه أنه كذلك لأنه مسلم ولأنه متميز عن كل من حوله وأنه متفرد بينهم لاتنماع شخصيته . وهكذا أصبحت سنة الختان سلاحا فى معركة الصمود لا يفل . « وما يعلم جنود ربك الا هو » [2] .

رابعا : أن القيم الأخلاقية فى الاسلام مازالت هى القادرة

---

(١) بيراموف ، ص ١٢٣.

(٢) سورة المدثر : ٣١ .

وحدها على أن تروى ظمأ المسلمين الى ينابيع الخير والمحبة والتكافل والتآزر • ومن ثم فشلت جميع محاولات الدعاية الالحادية للفصل ما بين الأخلاق والدين • ولربط الأخلاق بقيمة العمل ومصلحة الطبقات الكادحة ، كما فشل دعاة الالحاد أيضا فى اثبات زعمهم بأن قيم الأخلاق متغيرة بتغير البنية الاقتصادية للجتمع وأن ليس فى هذه القيم ما هو ثابت باق يستمد صدقه وبقاءه من أنه ميثاق الله الذى واثق به البشر منذ بدء الخليقة الى يوم القيامة • ان الشر يبقى دائما هو الشر والخير يبقى دائما هو الخير والقول بنقيض ذلك لا يقنع طفلا •

خامسا : أن التوازن الدقيق والتكامل الواضح بين الفردية والجماعية فى أداء شعائر الاسلام جعل منه وسيلة لتوحيد هذه الشعوب والتواصل الاجتماعى والتكافل الأخوى بين أفرادها • فصلاة الجمعة ، وشهود الجماعة فى المساجد وصلاة التراويح وصوم رمضان والأعياد الدينية هى مناسبات تحس فيها هذه الشعوب بوحدتها وتميزها وتجانسها • ولما كانت هذه الشعائر تتكرر بانتظام فبعضها يتكرر مرات فى اليوم الواحد وفى كل يوم ، وبعضها كل أسبوع وبعضها سنوى على مدار العام — أصبح من الصعب اقتلاع جذورها واستحداث طقوس وعادات وتقاليد بديلة • ان جميع هذه المحاولات تمضى دون أن تحقق فى المجتمعات الاسلامية ما يرجى لها من نجاح •

وأما ما يرجع من أسباب قوة الاسلام الى الظروف الموضوعية

والتاريخية للشعوب المسلمة تحت حكم السوفييت فمرده الى التجانس القومى لمعظم هذه الشعوب ووحدة المعاناة على مدى التاريخ لمظالم الحكم القيصرى والشيوعى • لقد أدت وحدة الانتماء الدينى والتجانس القومى الى اعتضاد الدين بالقومية واعتضاد القومية بالدين وأصبحت جميع شعائر الاسلام ملتحمة بالشخصية القومية لهذه الشعوب • ومن هنا نجد من دعاة الالحاد الحاحا شديدا على وجوب الفصل التام ما بين القومية والدين ولم يكن هذا بالأمر الهين ولا نظنه يكون •

هذا عن أسباب قوة الاسلام وصموده فى معترك العقائد على الأرض السوفيتية وأما عن مصادر الخطر على الاسلام والمسلمين هناك فعلينا ألا ننسى أن الاسلام يتنفس تحت حكم السلطة الحمراء هواء مشبعا بالمسموم •

وكيف نتطلب أن يعبر المسلمون عن رأيهم صراحة فى قضية الملكية الخاصة تحت حكم سلطة تعتبرها أعظم الشرور فى حياة البشر وتصم كل المدافعين عنها بكل نقيصة • وتعتبرهم أعداء للشعب تتدلى أجسادهم من أعواد المشانق أو يشردون الى مجاهل المنافى ومعسكرات الاعتقال ؟ وكيف نتصور أن يعبر المسلمون عن رأى الاسلام فى الالحاد والملحدين وما ينتظرهم من عذاب الله وعقابه فى الدنيا والآخرة وأن ينظم المسلمون

علاقاتهم بالكافرين على أساس ما شرع الله وهم يعيشون تحت حكم دولة قادتها وزعماؤهما هم أئمة الكفر والمجاهرون به ؟

وكيف نتطلب من المسلمين ثباتا وتصديا للالحاد والشرطة تتبعهم ان حاولوا تفقيه أبنائهم فى الدين فى حين يتخطف أولادهم على مسمع ومرأى منهم الى مدارس تلقنهم الكفر ، وتشربهم كراهية الدين ، وتشحنهم بالزراية والسخرية على آبائهم وأمهاتهم ، وتجتذبهم الى المنظمات الحزبية الكافرة الملحدة ، والا فالضياع ينتظرهم حيث لا تعليم ولا شهادة ولا فرصة عمل لهم فى الحياة بل انه لا أمل لهم ولا لصغارهم من بعد فى لقمة عيش تسد الرمق فى مجتمع يعلن حكامه « أن من لا يعمل لا يأكل » ؟

وكيف نتصور أن تثبت المرأة المسلمة هناك الى الأبد فى وجه حملات الدعاية الشرسة التى تحاول بكل طريق أن تشدها بعيدا عن دينها وقيمها وأن تزين لها المنكر فتجعله معروفا وتقبح لها المعروف فتجعله منكرا ، وأن تغريها بأبيها وزوجها فتنبذ الحجاب وتتبذل فى لباسها ، وتغشى المراقص وحفلات المجون الذى يسمونه « بريئا » والا انغلقت على نفسها ، وكابدت العزلة . واتهمت بالتخلف والرجعية ؟

وكيف للمسلمين بالصبر على مواجهة الفتاوى الباطلة التى تستصدرها السلطة من زعماء الادارات الدينية المتعاونة معها

والتى باعت دينها بدنياها ، فأصبحت كل فتاويها هدما لشعائر الاسلام واماتة لفروضه وسننه ؟

ألم تتجرأ الادارة الدينية لآسيا الوسطى وكازاخستان فى مارس ١٩٥٨ فأصدرت فتواها التى تحل فيها المسلمين العاملين فى الهيئات الحكوميةوالصناعية والسككالحديدية والكولخوزات من صيام رمضان بدعوى توافر شرط المشقة ؟ وكيف للمسلمين بالثبات والعواصف تجتاحهم حتى من قبل زعاماتهم الدينية المتآمرة ؟ وكيف تستطيع القلة المخلصة من رجال الدين أن تمارس دورها فى الدعوة الى الله وهم قليلو الحيلة مكبلو الأيدى مقطوعو الألسنة محرومون من أبسط الحقوق التى لا غنى عنها للانسان الحر ؟

لقد أوقع هذا التناقض الجذرى بين الاسلام والواقع المادى الملحد كثيرا من رجال الدين فى مأزق خانق . فلجأ بعضهم الى استخدام ما يتمتع به التصور الاسلامى من خاصية التوازن الدقيق بين الدين والدنيا ، وبين الغيب والشهادة ، وبين الفرد والمجتمع ، وبين طلاقة المشيئة الالهية وايجابية مشيئة الانسان ، وبين عبودية الانسان المطلقة لله ومقام الانسان الكريم فى الكون وبين الخوف من الله والرجاء فيه ، والتوازن فى مصادر المعرفة بين الوحى والنص وبين الكون والحياة = كل

مظاهر التوازن التى أسبغها الله على الاســلام [1] أصبحت فى أيدى بعض رجال الدين أداة طيعة يحسمون بها الأمر لصــالح ما يجدونه أقرب الى روح الماركسية وأدنى للقبول بين اتباعها. ولا شك أن بعضهم كان يريد بذلك خدمة للاسلام ليتمـكن من مواجهة الأعاصير . غير أن بعضهم قد انزلق الى هذا المنحدر استرضاء للسلطة وزلفى لديها كما يحدث فى كل زمان ومكان . وكانت النتيجة المؤلمة لهذا وذاك أن أصبحت أقوال رجال الدين حجة عليهم وعلى الاسلام وصارت هدفا لهجوم مروجى الالحاد ، فارتفعت عقائرهم تلصق برجال الدين تهمـة تحديث الاســلام Modernism وتكييفه لظروف المجتمع الجديد [2] ، وخرجت الموازنات تبرز التناقض بين مواقفهم السالفة وما طرأ عليهـا فى العصر السوفيتى من تغيير وكان الحصاد المر فى غير صالح الاسلام والمسلمين .

لذلك كله لابد من وقفة للتأمل واعادة النظر . لقد أصبحت قضية المسلمين فى الاتحاد السوفيتى ــ فيما يبدو ملفا تائها فى أرشيف التاريخ ، فى وقت يتحرك ضمير العالم لحماية حقـوق الانسان فى كل مكان . وانه لدين فى أعناقنا لا ندرى كيف نلقى

---

(1) انظر حديث الشهيد سيد قطب عن خاصية التوازن فى كتابه خصائص التصور الاسلامى ومقوماته ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ١٣٤ ــ ١٦٩ .

(2) من اوضح الأمثلة على ذلك كتاب نعمان عشـيروف الذى اشرنا اليـه مرارا .

الله وقد فرطنا فى أدائه • ولا يظن ظان أنه بمنجاة من الخطر ، فالدب المفترس ما يزال يمضى شاهرا بيديه المنجل والمطرقة ، وما تزال الدماء الشهيدة تقطر من مخالبـة وأنيابه ، وما يزال زاحفا بخطواته ليخرس كلمة التوحيد وينكس رايتهـا فى كل مكان ترتفع فيه حتى ان راياته المضرجة بالدماء لترتفع الآن قريبا من مهبط الوحى ومبعث الرسول •

هذه هى عبرة التاريخ التى لم نعتبر بهـا ، ولم يعتبر بهـا اخواننا هناك حتى التهمتهم القيصرية معقلا وراء معقل وأسلمتهم الى أوصياء كانت وصايتهم اثما وجنفا وورثة أكلوا أموالهـم واستحلوا دماءهم وفتنوهم فى دينهم « والفتنة أشد من القتل »•

الا وأنه لابد من خطوات فى سبيل دفع الاصر عن المسلمين على تلك الأرض • ونستطيع فى حدود اجتهادنا أن نطرح المهمات التالية أمام كل قادر على أن يفعل شيئا فى هذا السـبيل مهمـا يكن ضئيلا فقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الا نحقر من المعروف شيئا :

أولا : أن تمتد حملة الدفاع عن حقوق الانسـان لتشـمل الدفاع عن حقوق الأقلية المسلمة فى حرية الرأى والمعتقدوممارسة شعائر الدين ، وتنظيم حياتهم واقتصادهم طبقا لما تمليه شرائع دينهم دون تدخل أو اكراه أجنبى •

ثانيا : ان تربط الدول الاسلامية علاقاتها الاقتصادية والسياسية مع الاتحاد السوفيتي بمدى ما تتيحه السلطات للمسلمين من حريات . ويكون ذلك بممارسة كافة ألوان الضغط بهدف كسر الحواجز التى تقيمها سلطات الحكم السوفيتي بين المسلمين الخاضعين لها واخوانهم فى كافة أرجاء العالم الاسلامى .

ثالثا : أن تطالب الدول الاسلامية التى تسمح للمراكز الثقافية السوفيتية بالعمل على أرضها حكومة الاتحاد السوفيتى بأن تعاملها بالمثل فتسمح لها بافتتاح مراكز ثقافية فى المناطق الاسلامية لتوثيق الروابط مع شعوبها .

رابعا : توجيه اذاعة خاصة لهذه المناطق تذاع برامجها بالعربية والروسية واللغات القومية . وتدور برامجها حول المحاور الآتية :

١ ــ كشف الطابع الاستعمارى لعملية التوسع التى قامت بها جيوش القيصرية والجيش الأحمر وربطها تاريخيا وموضوعيا بحركة الاستعمار العالمى .

٢ ــ احياء تراث النضال الاسلامى ضد القيصرية والشيوعية ويمكن أن يكون ذلك بتوجيه برامج خاصة فى ذكرى قيام الثورات الاسلامية وحركة المريدين أو ذكرى استشهاد

بطل من أبطال المسلمين أو سقوط المدن الاسلامية فى يد الغزاة الصليبيين أو الشيوعيين .

٣ ـ تفنيد محاولات التشويه والتزييف الموجهة الى تاريخ الاسلام فى المنطقة وجلاء الوجه الحقيقى لهذا الدين .

٤ ـ اذاعة القرآن الكريم وخاصة بطريقة المصحف المعلم .

٥ ـ التعريف بالسنة الشريفة وتاريخ الصحابة رضوان الله عليهم .

٦ ـ احياء الأعياد والمواسم الدينية .

٧ ـ تعريف المستمعين بأخبار العالم الاسلامى وكسر جدار العزلة الذى يراد اقامته بينهم وبين اخوانهم فى سائر انحاء الدنيا .

٨ ـ توجيه برامج دينية تربوية للأطفال والشباب .

٩ ـ العناية بالبرامج الموجهة الى المرأة المسلمة بالنظر الى دورها المؤثر فى تربية الأجيال الجديدة واقامة البيت المسلم .

١٠ـ تقديم برنامج مدروس لتعليم العربية بواسطة الاذاعة .

١١ـ اصدار الفتاوى الشرعية السليمة التى تعالج كافة مايتعرض

له المسلمون من مشكلات سياسية أو اقتصادية أو أسرية فى ضوء القرآن الكريم والسنة المطهرة •

سادسا : الضغط على الحكومة السوفيتية لاطلاق الحرية لمن يريدون أداء فريضة الحج من المسلمين ووقف تدخل الحكومة والحزب فى تحديد العدد واختيار الأعضاء ••

سابعا : العمل على توثيق الروابط بين الادارات الدينية وسائر الجامعات والهيئات الاسلامية فى العالم الاسلامى وتقديم المنح الدراسية لأبناء المسلمين لا فى مجال الدراسات الدينية فحسب بل فى جميع مجالات المعرفة التى تهم المسلمين هناك •

أقول قولى هذا • والله سبحانه من وراء القصد ، منه العون وبه التوفيق ، وعليه الاتكال ، واليه المرجع والمآب •• وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ••

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

أولا :

الجذور التاريخية للقضـــية ٩

ثانيـاً :

المسلمون فى الاتحاد السوفيتى وحق تقرير المصير ٢١

ثالثـاً :

المسلمون فى الاتحاد السوفيتى ومبدأ حرية الضمير ٣٧

رابعـاً :

الفتنة أشـــد من القتل ٥٧

خامســاً :

نظرة الى المستقبل ٩١

رقم الايداع ٢٣٩٣ / ١٩٨٠

الترقيم الدولى ٦ ـ ٣٢ ـ ٧٠١١ ـ ٩٧٧

مطابع المختار الاسلامى
دار الســـلام
القاهرة

هـــذا الكتاب

★ هذا الكتاب تصوير دقيق لموقف روسيا الملحدة من المسلمين هناك واضطهاداً ومصادرة لحياتهم .

★ وهو يجمع فيما يقدم من حقائق ـ بين الدقة العلمية نقلا من المصادر وبين المشاهدة والتجربة حيث عاش كاتبه سنوات أربع فى روسيا مفتوح العينين دقيق الملاحظة لكل ما يجرى هناك .

★ وهو بما آثاره من الاستفهام او تعجب ـ ايقاظ لمشاعر المسئولية من مسلمى العالم كله تجاه المسلمين فى البلدان الملحدة كما انه تنبيه واع بالخطر المحدق ـ فضلا عن الواقع ـ وما تقتضيه من تحرك لمجابهة موقف اعداء الله من الاسلام .

« ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين »

★ وهو محاولة تضعها دار البحوث العلمية امام قر... مكان اسهاما منها فى كشف الزيف وايقاظ الوعى...

